أديان العالم الكُبرى

ترجمة وتلخيص

حبيب سعيد

الكتاب: أديان العالم الكُبرى

ترجمة وتلخيص: حبيب سعيد

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

سعيد، حبيب

أديان العالم الكُبرى / ترجمة وتلخيص: حبيب سعيد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢١ ص، ١٨*٢١ سم.

التَرقيم الدولي: **١- ٧٥ – ٦٨٣٧- ٩٧٧- ٩٧٨**

أ – العنوان   رقم الإيداع: **١٦٠٢٥ / ٢٠٢٠**

أَديان العالم الكُبرى

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم الكتاب

علم القانون المقارن من العلوم التي لا غنى عنها لرجل القانون لتكوين عقليته القانونية. وعلم الدين المقارن من العلوم المرعية الجانب في كليات الدين لإنارة أذهان الطلاب والباحثين لتفهم وجهات النظر المختلفة، وتقوية روح الإنصاف والتسامح تلقاء آراء الآخرين وعقائدهم.

لهذا رأينا إصدار هذا الكتاب، وقد جمع بين دفتيه فصولاً عن البوذية والهندوسية والكنفوشية والشنتوية ملخصه عن كتابين للأستاذ "وليم باتون"، ثم فصولاً أخرى عن الأديان السامية الثلاثة– اليهودية والمسيحية والإسلام–وقد آثرنا أن يتحدث كل من هذه الأديان الثلاثة عن نفسه على لسان عالم من علمائه.

ولم يتعرض الكتاب إلى الأديان الوثنية الفطرية. لا لأنها غير خليقة بالدرس، فإن فريقاً من علماء هذا العصر قد توفر على دراستها، ولكن لأن نطاق كتاب مختصر كهذا يحول دون التبسط في عقائد متشعبة اتخذت أوضاعاً متباينة في رقاع كثيرة من أجزاء المعمور.

وفي آخر الكتاب ملحقان –أحدهما يبين القوة العددية لكل من هذه الأديان، ويبين الآخر تواريخ بعض الحوادث البارزة التي أشير إليها.

وأكبر الظن أن هذا هو الكتاب الأول من نوعه في اللغة العربية، فيه من طرافة البحث ولذته، ما يحمل القارئ على الدرس والتأمل، وموازنة آراء الآخرين بروح النصفة وحسن التقدير.

البوذية

يُقال أن للبوذية أتباعاً أكثر من أي دين آخر. ويزعم بعضهم أنها ملجأ حصين لخمس مائة مليون من الأنفس البشرية. ولكن الأرقام تخدع كثيراً. وهذا الزعم يستند في الغالب إلى أن بلاد الصين بوذية كلها، بيناً يتقاسمها في الواقع أديان ثلاثة هي البوذية والكنفوشية والتاوستية، كما يتقاسم اليابان أديان ثلاثة أيضاً هي البوذية والكنفوشية والشنتوية.

مذاهب البوذية المختلفة

والبوذية تشمل أشياء كثيرة. فهناك المذهبان الكبيران الشمالي والجنوبي، وينقسم كل منهما إلى عدة من الطوائف. والمذهب الشمالي بكتبه المقدسة في اللغة السنسكرينية منتشر في الصين واليابان والتبيت ونيبال وجازة وسومطرا. أما المذهب الجنوبي وكتبه المقدسة باللغة البالية فمنتشر في بورما وسيلان وسيام. ولو أن أتباع هذا الأخير أقل عدداً من الأول، فإنه أقرب كثيراً إلى الأصل ولم يداخله إلا القليل من العناصر الغريبة في تطوره التاريخي الطويل. ولذا سنقتصر في بحثنا الآن على هذا الأخير لأنه يمثل الدين الأصلي الذي علم به بوذا.

المؤسس

من الحقائق المقررة أن شخصاً هو الذي أسس البوذية. ولقد حاول بعض العلماء إحاطته بأسطورة شمسية، شأن كثير من شخصيات التاريخ

الغارقة في القدم، ولكن الدليل على وجود هذا الشخص جلي لا غموض فيه. ولكن تعذر علينا التمييز بين ما هو حق وما هو أسطوري في تاريخ حياته، فإن الوقائع الأصلية ثابتة مؤكدة. والمعروف أن مؤسس هذا الدين قد ولد في أواخر القرن السادس أو أوائل القرن الخامس قبل المسيح في مدينة صغيرة تقع بين مدينة بنارس وجبال الحملايا شمال نهر الكنج المقدس. وكان أبوه (راجا) زعيم قبيلته وأطرق على أسرته لقب "غوتاما". واسمه الشخصي "سدهارثا" (أما كلمة "بوذا" ومعناها "المستنير" فليست اسمه الشخصي بل هي اللقب الذي خلع عليه. ولعل "غوتاما" أكثر الألقاب ذيوعاً، وهو اللقب الذي نطلقه عليه في بحثنا).

كان ابن ملك، تحدر من سلالة عريقة المحتد، وامتاز بقوى في العقل والبدن. ثم تزوج في سن مبكرة من ابنة أحد الأمراء. ونظر إذا بالمستقبل الباهر يمتد تحت قدميه. على أن نفسه لم تهدأ على حال من القلق، ففي غمرة النعيم الذي كان يرفل فيه حامت حول مخيلته أسئلة لم ير لها حلاً. وطفق العقل الحائر ينقب حول معنى الحياة، حتى أمست الحياة عبئاً تنوء به الظهور. وأعقد مشكلة طغت على نفسه، وهو يتمرغ في نعماء الحياة وأطايبها، هي مشكلة الآلام البشرية. فإن النعماء التي كان فيها مقيماً، جعلت هذه المشكلة شوكة مسننة في نفسه. وعنه. تروى الأقاصيص عن التقائه برجل شيخ قد أفنى المرض بدنه، أو رؤيته جثة قد أمعن فيها الفساد بلاءً، فترعبه تلك المناظر وتأخذ عليه السبيل. ولم يطل به الأمر حتى لجأ إلى حياة الزهد والتقشف مؤملاً أن تزاح الغشاوة عن عينيه، ويغور

إلى أسرار معنى الحياة بعد أن يتحرر من ربط الأسرة وهموم العالم، وينصرف إلى التأمل وإماتة الجسد.

بحثه عن النور

وبعد إذ غادر أسرته ارتمى في أحضان بعض المعلمين من النساك فتلقى عنهم تعاليم البراهمة. وقد صاغ النظام الذي وضعه فيما بعد على أساس مطارحاته مع ذلكم النفر من الزاهدين. على أن أساليب تقشفهم ودمدمتهم بالألفاظ المألوفة، مع إغراق عقولهم وتفكيرهم في براهما– كل هذه لم تجده شيئاً.

وكانت الخطوة الثانية أن لجأ وخمسة من أترابه إلى غاية هادئة للاختلاء، والتأمل، وترويض النفس. وهناك قسا على جسده وعقله وأذلهما أيما إذلال، فكان غذاؤه اليومي حبة من الأرز. وجاهد جهاداً عنيفاً لإدماج نفسه في الروح الإلهي، كما فعل قليل من زهاد الهنود، حتى حُسب أعظم القديسين شأناً في قومه. وفجأة أحس عقم هذه الجهود الضائعة، وفي شجاعة نادرة صارح زملاءه بأن تجربته قد فشلت، وعاد يتناول طعامه العادي. فما كان من أصدقائه الخمسة الذين زاملوه في خلوته إلا أن مضوا في حال سبيلهم آسفين. وكانوا قد أملوا فيه كثيراً حين رأوا غيرته المتقدة، والآن يرونه يخيب آمالهم خيبة مريرة.

أما الخطوة الثالثة فكان سنة كاملة قضاها في تأمل عميق، وفي عزلة كاملة. وكانت الشكوك والمخاوف قد تنازعت نفس غوتاما، فهو قد اقتنع أن إماتة نفسه وإذلالها لم يجدياه نفعاً، وهو ما يزال حائراً مضطرباً يتخبط

على غير هدى. فساورته الأفكار أن يعود إلى موطنه ويعدل عن سعيه. وفي ذات يوم جلس يتناول طعام الإفطار تحت ظل شجرة صارت فيما بعد مقدسة في نظر البوذيين، حتى نظروا إليها نظرة المسيحيين إلى الصليب. وهناك قضى اليوم كله، والليل كله، في نزاع داخلي، حتى إذا بزغ نور الفجر، أشرق عليه نور الحق ينبئه أن شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث من رغبات النفس، وأن الإنسان مستطيع أن يكون سيد رغباته لا عبداً لها، وأن في مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين. فهجر غوتاما مشهد التريث والانتظار، وطفق يحمل رسالته إلى العالم، رسالة قد تفشت على قلبه بأحرف من نار. ولقد حدثته نفسه أن يحتفظ بهذه الرسالة لنفسه، ويستمتع بالنور دون أن يشرك فيه أحداً، لأنه حشي أن يقصر الناس عن فهم رسالته قبل أن يختبر طور التدريب والمران الذي اختبره هو. وقيل إن الباعث الذي دفعه إلى أن يكون مرسلاً ومبشراً هو محبته للبشرية ورغبته في أن يشاطره الناس هذا الحق الجديد المهذب للنفس. والبوذيون الأتقياء يشكرون الله في غير انقطاع لأجل هذا الصنيع الذي أتاه بوذا وأنكر فيه ذاته.

حياته وتعاليمه

ذهب أولاً إلى الرفاق الخمسة الذين هجروه، وحين سمعوا قصته، قبلوا رسالته وتبعوه. وكان بين أنصاره الأولين فئة من الشبان ذوي الكرامة والمكانة. وفي قليل من الزمن جمع إليه ستين من صحابته، وجعل منهم نواة الهيئة التي بعثها لنشر دعايته والتبشير برسالته. أما هو فعاد إلى مسقط

رأسه ليرى أبويه وزوجته. وعبثاً حاولوا إقناعه للعدول عن دعوته –وقد قال لأبيه الذي عاب عليه استجداءه في الطرقات وذكره بسلالته الملوكية: "قد تدعي أنت وأسرتك التحدر من سلالة الملوك، وأما أنا فأنتسب إلى نسل بوذا منذ القدم، وهم قد عاشوا يستجدون طيلة حياتهم كلها". وظل أربعين سنة يجاهد في نشر دعوته وتثبيت النظام الذي وضعه متنقلاً من مكان إلى آخر، يتناول الطعام الذي يجود به عليه الخيرون من الأغنياء والفقراء، ويعلم كل من أقبل إليه للاسترشاد به. وفي الثمانين من عمره قضى نحبه. وله من الكلمات التي تفوه بها على سرير الموت ما خلده التاريخ. فهو القائل: "كونوا لأنفسكم نوراً، وملجأ حصيناً، ولا تلوذوا بغير أنفسكم"– "قد تفكرون في أنفسكم قائلين: الآن انتهت الكلمة بعد إذ قضى معلمنا، ولكن إياكم وهذا التفكير. واعملوا بعد موتي لتثبيت الناموس الذي علمتكم إياه والنظام الذي أرشدتكم إليه. وكونوا لأنفسكم خير المعلمين". وأما كلماته الأخيرة فهي: "أيها الشحاذون المستجدون: الآن أوصيكم بأن عناصر الإنسان وقواه ينبغي أن تذوب وتفنى، فتمموا خلاصكم بجد ومثابرة".

مؤثراته الشخصية

كان لأخلاق غوتاما الشخصية، أكبر الأثر في الدين الذي أسسه، ولو أن الكلمات التي اقتبسناها الآن تدلنا على أنه لم يومئ إلى نفسه بل إلى الحق الذي أعطاه. وقد كانت رقة نفسه وهدؤها، ومحبته للإنسانية، ورغبته في إنكار ذاته لتخفيف الآلام والأوجاع –كانت هذه كلها أفضل

العناصر في أخلاقه التي يرجع إليها أكبر الفضل في نشر تعاليمه. ونشاهد حتى اليوم، حيث تتحرر البوذية من الملابسات المتأخرة، ويبدو شكل بوذا مجرداً عن عوامل الاصطناع، شيئاً من هذه الصفات الأدبية في نفوس أتباعه والمؤمنين به.

وفي الكتب البوذية قصة تصلح مثلاً على كرم أخلاقه: يُروى أن فلاحاً برهمياً كان يحرث حقلاً، وإذا ببوذا يجيء إليه وفي يده وعاء يستعطي فيه فقال له الفلاح: "أيها الناسك: عليّ أن أحرث وأزرع، لأكسب عيشي. فعليك أنت أيضاً أن تكافح وتعمل ثم تأكل". فأجابه بوذا: "أيها البرهمي: أنا أحرث وأزرع، وبغير هذا لا آكل". فيقول له الفلاح: "لا أرى نيراً، ولا محراثاً، ولا منخساً، ولا ثيراناً". ويجيبه بوذا بعبارات شعرية قائلاً:

"أنا فلاح بحق، أيها السيد، والآراء الضائبة هي البذار المثمر الذي أبذره. وتدريب النفس هو المطر الذي أسقي به. أما الحكمة فهي نيري محراثي، والوداعة ميسي، والاهتمام بالغير محور عجلي، واليقظة منخسي...

"وبتهذيب الفكر والقول والفعل أنقي الأرض من أعشابها الضارة، وبطريق الخلاص أنادي...

"أما ثوري فهو السعي المتواصل الذي يحملني في غير ملل إلى حيث لا يصيبني حزن حتى أقرب إلى نرفانا، وهو الهدف الذي إليه أسعى".

عندئـذ يصـب الفـلاح البرهمـي الأرز الممـزوج باللـبن في وعـاء مـن الذهب ويقدمه إلى غوتاما قائلاً:-

"في الحق أنت فلاح بكل معنى الكلمة. وحصاد الحق هو طعامك الشهي. اشرب هذا يا سيد هنيئاً. وبعد اليوم أنا أطوع لك من بنانك".

الحقائق الأربع

وغوتامـا نفسـه ينكـر أنـه جـاء لينـادي مبـدئياً بنظـام في الآداب والأخلاق. ولكنه رغب في أن يقتبس البشر الحقائق الأربع التي تلقاها تحت الشجرة المقدسة، والتي هي أساس النظام الذي وضعه. أما هذه الحقائق فهي:

١- الألم أو الحزن: الولادة، والنمو، والمرض، والموت، وفراق الأحياء، وكل ما يتصل بوجود الفرد- هذه كلها تجيء عليها بالأحزان.

٢- علة الحزن: إن اهتياج العاطفة بعد ثورها، واللذة في تملك الأشياء أو الرغبة في احتيازها، والشهوة، ومحبة العالم الحاضر، والشوق إلى عالم مستقبل- وقصارى القول الشهوات والرغبات، هي أصل آلامنا وأوجاعنا.

٣- أبطال الحزن: يبطل الحزن متى بطلت شهوة الحياة وانتفى الظمأ إلى هذه الأشياء.

٤- طريق إبطال الحزن: ولتحقيق هذا الطريق واحد، هو الحياة الفضلى المفكرة ذات الثماني شعب.

أما هذه الشعب الثمان هي:

الآراء السليمة، والشعور الصائب، والقول الحق، والسلوك الحسن، والحياة الفضلى، والسعي المشكور، والذكرى الصالحة، والتأمل الصحيح.

الأطوار الأربعة

ولهذه الطريقة أربعة أطوار (والبوذية حافلة بعدد لا يحصى من الأحكام والحقائق، والرذائل والفضائل، يعرفها البوذيون بالاسم، كما يعرف المسيحيون وصاياهم العشر). وفي خلال هذه الأطوار الأربعة تنكسر القيود العشرة. فالطور الأول هو الإحياء والتجديد حين يدرك الإنسان معنى الحقائق الأربع المشهورة. وعند بلوغ هذا الطور يقوى على كسر القيود الثلاثة الأولى– وهي الوهم الخادع في وجود النفس، والشك في بوذا وتعاليمه، والاعتقاد في تأثير الطقوس والرسوم الدينية. أما في الطور الثاني فيقوى المهتدي على التخفيف من حدة الشهوة والكراهية وغرور الأوهام. وفي الطور الثالث يحطم قيود الشهوة تحطيماً. وأما الطور الرابع فيسمى صراط المقدسين، وفي هذا الطور يتحرر القديس من القيود الباقية، وهي الرغبة في البقاء المادي وغير المادي، والكبرياء، والاعتداد بالبر الذاتي، والجهل. وعند بلوغه هذا الطور يكون قد وصل الهدف الذي يسعى إليه، وهو "نرفانا".

ما هي النرفانا؟

قلنا أن "النرفانا" هي الطور الرابع الذي يبلغه البوذي في مصارعاته وجهوده النفسية عن طريق الإذلال والتعبد. فما هي النرفانا هذه؟ الفكر السائد أنها الاندماج في الله والفناء فيه. ولكن البوذية لا تعرف إلهاً قط، وفكرة هذا الفناء في الإلهية غريبة غير مألوفة فيها. وكانت رغبة الفناء في الله من الرغبات التي تاقت إليها نفس غوتاما مؤسس البوذية، وهو يمارس أساليب إذلال نفسه قبل أن تستعلن له الرؤيا تحت ظلال الشجرة المقدسة. ولكن مطامعه قد تبدلت فيما بعد، أما النرفانا في عرف البوذي فهي الطور الرابع الذي يبلغه الناسك الزاهد بعد أن يكون قد حطم كل قيود نفسه وأغلالها، ورغب في شهوة البقاء، وتملكه عقل هادئ مطمئن لا يتسرب إلهي الخطأ، وتجرد عن كل الأماني والرغبات والجهالات وأسباب الخديعة والإغراء. بعد هذا كله يبلغ البوذي طور "النرفانا"، يبلغه في حياته على الأرض كما فعل غوتاما.

والحقيقة الأساسية في تعاليم مؤسس البوذية هي "ناموس العلة والمعلول". فالكون في نظره وحدة متصلة متماسكة، ومجموعة مركبة لا انفصام بين أجزائها. وهو مركب من مجموعة هائلة من العناصر المختلفة لا تزيد ولا تنقص بل يُعاد توزيعها باستمرار، ويعاد ترتيبها ووضعها بحكم الناموس الخاضعة له. وكل مجموعة جديدة إن هي إلا علة نشأت عن المجموعة التي تقدمتها. ولكن غوتاما لم يقل شيئاً عن تكل "العلة الأولى" الذي يدير دفة هذا الكون، ومحظور على البوذي التقي أن يبحث في هذا.

وكانت الصلة بين هذه الفكرة عن العالم، وبين طبيعة الإنسان في غاية الخطورة. فللإنسان، فضلاً عن كيانه الجسماني، خواص عدة هي المشاعر والأحاسيس والآراء والميول والقوى العقلية. وهذه الخواص، مقترنة بالكيان الجسماني، تكون ما نسميه "النفس" أو "الذات".

على أنه لم يكن في عرف "غوتاما" (خلافاً للبراهمة الذين صاغوا الفكر الهندوسي) شيء يدعى "الذات" أو "النفس". ومعنى هذا أن "غوتاما" لم يسلم بوجود "الذات" كشخصية موحدة. ولم ير إلا تلك المجموعة من الخواص أو الصفات الخاضعة للناموس الذي قلنا عنه فيما سبق ناموس "العلة والمعلول". وهذه الخواص والصفات توزع من جديد عند الموت. وانتقاء هذه الشخصية الموحدة يعني إنعدام الخلود بعد الموت. وما كان يقال أن "الذات" أو "النفس" تنعدم عند الموت. ذلك لأنه لم يكن لها وجود في الأصل. أما العناصر التي يتكون منها الإنسان فمصيرها عند الموت (في رأي غوتاما) التفكك والتجمع ثانية في وجود جديد في مجموعة جديدة.

والمفروض أن العناصر المكونة للإنسان ينبغي أن تخضع للناموس العام في الكون. ويتولد عن هذا الخضوع تناسق في المجموعة كلها. غير أن الأماني والرغبات في الذات البشرية هي التي تولد التنافر. وذلك لأن خواص الإنسان، من أحاسيس وميول وآراء، متى اتصلت بالعام الخارجي تخلق رغبة ملحة.

وهنا يحق القول أن كثيراً من هذه الرغبات والأماني صالحة لا غبار عليها، ولها ما يبررها. ولكن غوتاما لا يسّلم مطلقاً أن الرغبات والأماني قد تكون صالحة. فالرغبات عنده تنشأ عن الأعمال صالحة كانت أو شريرة، ولكنها تعمل على إقصاء النفس من الحياة المركزية في الكون. وعند الموت تُنتج الرغبة، التي يكون قد أشبعها الإنسان، وكذلك تُنتج الأعمال التي نشأت عنها، كائناً جديداً. فإن كان للإنسان شهوات حيوانية وحشية، تتجمع هذه العناصر كلها، وقد تخلق بعد موته حيواناً شرساً وحشياً كالنمر.

قلنا أن النرفانا هي الطور الذي يبلغه البوذي في حياته بعد أن يتجرد من أمانيه وجهالاته. فإذا مات الجسد تزول الأماني والرغبات ويسري عليها ناموس "الكرما"، أي أن كل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتماً، وأن كل شيء يختبره في كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التي يأتيها في الوجود السابق وهي بمثابة كفارة. فالنرفانا ليست في حد ذاتها موتاً، بل هي حالة في السلام المقيم، والقداسة الكاملة، والتجرد من الأماني، والرغبات ومن كل الأشياء التي تغري الإنساني على التشبث بهذا الكيان المستقل –هي جنة البوذيين التي ينعمون فيها بعد التطور الأدبي في الطريق ذي الشعب الثمان بأطوارها الأربعة.

ولذلك اكتفى بأن أعطى عامة الشعب مجموعة هائلة من التعاليم الأدبية والأحكام والوصايا التي أودعها كتبه وأسهب فيها بقصص ذات

مغزى أدبي. وهو يعتقد أن قليلين جداً هم الذي يبلغون النرفانا في جهادهم الأخلاقي.

طبيعة الإنسان

وهنا نجمل ما أسلفنا من أفكار لنتبين حقيقة الفكرة البوذية عن الإنسان ونقارنها بالفكرة المسيحية: أنكر بوذا صراحة وجود النفس البشرية. وعنده أن الشخصية الظاهرة تتكون من خمسة عناصر– هي الخواص المادية، والحواس، والآراء المجردة، والميول السابقة، والأفكار. وهذه كلها تنحل عند الموت وتنفكك. ولولا وجود الرغبات، لما أمكن أن تتحد هذه العناصر مرة أخرى. ولكن هذه الرغبات (وهو لا يعني بها مجرد الرغبات الدنيا الحيوانية، بل يقصد الرغبات إطلاقاً ومنها رغبة الوجود الفردي المستقل) تسوق إلى العمل، والعمل يسوق –بدافع ناموس الكرما– إلى خلق شخصية جديدة، وإيجاد نواة جديدة تتجمع حولها عناصر النفس. ونظرية الكرما الهندوسية[1] أساسها أن للإنسان شخصية مفردة مستمرة متداولة في حياة متتابعة. ويظهر أن الشخصية في البوذية وهمية خيالية.

والدين المسيحي –كما لا يخفى– متصل باليهودية، لاحق لها. ولذلك يحسن أن نبدأ بفكرة أنبياء إسرائيل عن الإنسان وعن العالم، وهي من المخلفات الثمينة التي بقيت تراثاً للجنس البشري من أنبياء اليهودية.

---

(1) انظر فصل ٢.

فالعالم والإنسان مدينان بوجودهما –حسب الفكرة اليهودية– لله وهو مصدر بقائهما ودوامها. هو الخالق عز وجل. وبهذا المعنى لا يكون الفرد منبثقاً من الله ولا جزءاً منه. إنما الله متعال متسام فوقه. وكما أن هناك خطاً فاصلاً يميز الفرد عن أخيه في الإنسانية، كذلك هناك خط فاصل يميزه عن الله تعالى. وبين الشخصية الإنسانية والشخصية الإلهية شبه. لأن في الإنسان بعض ما هو إلهي بنسبة استجابته لنداء الله والاقتراب منه. ولكن ليس الإنسان جزءاً من الله. ولا هو عنصر من عناصر وجوده تعالى. كذلك ليس العالم جزءاً من الله، ولا مشاركاً له في الحدوث والقدم.

ولقد بحسب أنبياء إسرائيل العالم، الذي وضعهم فيه الله، ميداناً يتعلم فيه الإنسان بالاختبار، وهم لم يقبلوا العالم قبولاً سلبياً حسبوه مكاناً يُكافح فيه الشر وينشط فيه الخير. ومواهب الإنسان هي "الصداق" ليفعل ما يريده الله منه، فيغلب بذلك ضعفه ويتحول قوة، وتستقيم رغائبه وميوله وترقى إلى الأشياء السامية، حيث يفلت من التجربة والغواية. وما أبعد الفرق بين هذه الفكرة وبين نظرية "الكرما" والعالم الخيالي الوهمي في البوذية. ولقد آمن الأنبياء أن الخير والشر اللذين يحلان بهم هما بمثابة فرص سانحة للخدمة تُؤدي بالطاعة والرضا استجابة لدعوة الله، ولا وجه للاستحقاق الذاتي. وما كانوا ليستسيغوا قط فكرة تقول أن ما يحل بهم في الحياة إنما هو نتيجة أعمال وتصرفا وقعت في وجود سابق. ثم هم حسبوا هذا العالم أيضاً حقيقة خارج أنفسهم وذواتهم، عينها الله العزيز الحكيم. أما النظرية التي تجعل العالم وهماً وخيالاً تخلقه رغبات الإنسان فما كان لها

عندهم أثر، ولو أنها خطرت على بال أحد في يومهم لحسبوه إثماً وتجديفاً، بله بطلاً وسخفاً.

وهذه الفكرة قد افترضها العهد الجديد فرضاً. وأن حقيقة المسيح لتجعلها ألمع نوراً وأكثر شمولاً في بساطتها العميقة. ولكن معانيها الجوهرية تتفق تماماً مع إعلان الأنبياء. ويذهب العهد الجديد في تعليل أصل خطية الإنسان إلى أبعد مما ذهب إليه الفكر الإغريقي. فبينما ذهب الفكر الإغريقي الأرستقراطي إلى أن العقل هو جوهر الإنسان، عارضه في هذا الفكر المسيحي وذهب إلى أن الإرادة الأدبية هي مركز الدائرة. وليست الخطية في الإنسان مجرد جهل، ولا هي مجرد الانغماس في عالم مادي زائل. إنما هي معصية الإنسان الذي خُلق ليحب الله ويفعل مشيئته طواعية واختياراً. ثم أن الفساد الذي في قلب الإنسان، الذي خُلق على صورة الله، يُنظر إليه نظرة عميقة فاحصة. على أن المسيحية ليست ديناً أرستقراطياً، ولذلك لا شيء في العالم عندها تعدل قيمته تلك النفس البشرية، مهما أوغلت في الجهل، ومهما وهنت من الضعف والهزال.

* * *

وللبوذية نظام معين من حيث رجالها وخدامها. ولقد عرفنا من قبل أن "غوتاما" ذهب إلى أن الطريق إلى النرفانا والحياة الروحية السامية لن يبلغها إلا أشخاص أفرزوا أنفسهم لهذا الغرض. ولذلك وضع رتبة للنسّاك المتزهدين.

وكان محتماً على من يريد الدخول إلى إحدى رتب النظام الديني أن يستشير أولاً والديه. ويمكن قبوله في الثامنة من عمره. ولكنه لا يُرسم في وظيفته قبل العشرين. أما حفلة القبول فلا تخرج عن إجراء بعض الطقوس، وترداد بعض الألفاظ. ويُفرض على الناسك التبتل، ويحظر عليه الرقص والغناء والمسارح أو أخذ الفضة أو الذهب. ولا يأكل في اليوم إلا وجبة واحدة في الضحى. ويحمل في يده طبق الإحسان متنقلاً من بيت إلى آخر، لا يقول كلمة لأحد، ولا يؤثر الغني على الفقير عند طلب الإحسان.

وقد عاش أولئك النسّاك في الأديرة التي شُرع في تشييدها في زمن "غوتاما" نفسه وارتدوا الثوب الأصفر البسيط، أما عملهم فكان، علاوة على صيانة الأماكن المقدسة، الدرس والتأمل.

وليس لدينا من تاريخ البوذية المتأخر إلا القليل من المعلومات –منها أن إمبراطوراً شهيراً يدعى "اسوكا" بسط سلطانه على بلاد الهند كلها حوالي سنة ٢٥٠ق.م. وشجع البوذية بكل قواه، فكان لها كما كان الإمبراطور قسطنطين للمسيحية.

وفي الشمال حادت البوذية عن أصولها، ونسى القوم إنسانية بوذا، وأخذوا يبتكرون عدداً من الآلهة ذكوراً وأناثاً. واستحالت عقيدة بوذا القائمة على إنكار وجود الله، إلى عقيدة تعدد الآلهة الوثنية. وهكذا اضطربت العقائد في الجنوب، فبعدت كثيراً عن الأوضاع التي أرادها بوذا نفسه.

وأنكر بوذا الصلاة. ولكن أتباعه أخرجوا ما لم يبتدعه أي دين آخر، ألا وهو الصلاة الآلية القائمة على مجرد التكرار والملل. فكانوا ينقضون بعض الألفاظ السحرية على عجلات للصلاة يديرها الهواء أو قوة اندفاع الماء. وفي كل مرة تلف العجلة لفتها، وترتفع الكلمات المنقوشة نحو السماء، تُردد صلاة هي مجرد تكرار. ولو كان بوذا نفسه حياً لانتفض خجلاً من هذه الابتكارات الصبيانية.

كيف يكتمل هذا النقص في البوذية

وبعد هذا نرى كثيراً من الحق والخير في البوذية، وكثيراً من السخف والحماقة. ونرى بوذا نفسه رجلاً قد أحس بحاجة العالم، فقضى زمناً طويلاً في صمت وتفكير، وعانى نزاعاً روحياً عقلياً، وعاش حياة مجردة عن حب الذات، نقياً، طاهراً، صبوراً، رفيقاً.

ولكن ما أعظم الفارق بين صمته حيال بعض الأمور الخطيرة، وبين النور الوهاج الذي خلعته المسيحية عليها. فبوذا صمت ولم يذكر شيئاً عن الله. ولكن المسيح اقتاد البشرية إلى الله الآب. وقد رأينا في البوذية المتأخرة أن القوم نسوا إنسانية بوذا فاتخذوه معبوداً. وكل دين يقوم على إنكار الله يعرض نفسه للانهيار. ذلك لأن البشر لا يرضون نظاماً تنتفي فيه كل فكرة عن أصل الحياة ومنشئها ومصيرها. فإذا خلت السموات من ربها، بادر البشر على التوّالي ملئها بآلهة من مبتكرات خيالهم. فهذا الفراغ الذي أحدثه بوذا بإنكاره الله، تكمله المسيحية بالله الآب الذي أعلنه المسيح، الذي يجمع بين البشري والإلهي في رابطة من المحبة لا تنفصم وشائجها.

وأفكارنا الصائبة عن الله تتبعها حتماً أفكار صائبة عن الإنسان. فمن ناحية واحدة نرى "غوتاما" يرفع الإنسان إلى درجة سامية لا يدانيه فيها أحد. ولكنه من ناحية أخرى يخفضه إلى مرتبة وطيئة بنظرته المتشائمة في الحياة، وإقامته نظام التبتل والاستجداء، وامتهان الجسد البشري. وما أعظم الفارق بين التأمل في الجسد "كجثة متعفنة سريعة العطب والفناء"، وبين "اعتباره هيكلاً للروح القدس"! فالحياة في نظر "غوتاما" شيء كريه ينبغي التخلص منه والطهر من أوزاره، وأما "النرفانا" فهي لا شيء للإنسان العادي لأنه لن يقدر أن يبلغها، وهي في جوهرها أشبه بالفناء. وأنه لأنبل وأجدى أن نفكر في الشخصية البشرية وقد تطهرت وتهذبت شهواتها وميولها، من أن نفكر فيها وقد عدمت تلك الشهوات واندثرت. ومع احترامنا للناموس الأدبي الأخلاقي الذي وضعه بوذا، وما ترتب عليه من نتائج الإحسان والإشفاق المتبادل بين أتباعه، ينبغي ألا يغرب عن الأذهان أنه يقيم نوعاً سلبياً من أنواع الحياة. وهو لهذا عدو التقدم والرقي. ومن هنا كانت البلدان التي سادها الفكر البوذي أقل البلاد سعياً في ميدان الحياة، وأضعفها أثراً في اكتساب العالم إلى ملكوت الله.

وإن قلنا أن البوذية تجد في المسيحية ما ينقصها من إعلان مظهر الله الآب، وإعلان حقيقة الإنسان. فإنها تجد فيها أيضاً رسالة الخلاص من الخطية. ذلك لأن البوذية تفرض قواعد صارمة لبلوغ "الكرما". ويطغى على البوذية من جراء ذلك فكرة الناموس واستحقاق الشخص الذاتي. وبينا تقوم "الكرما" وازعاً إلى الصلاح ومانعاً عن الخطأ، فإنها تولد نوعاً من

الفضائل يظنها المرء مكتسبة بجهوده الخاصة وإذلال نفسه. وليس في البوذية أمل للنفس التي يشتد بها الصراع وتخور في العراك، ولن تمتلئ النفس بفكرة متعمقة عن قداسة الحياة، وشعور الحاجة إلى قوة تسند وتعضد في الصراع ضد الخطية، إلا متى تلاقت النفس وجهاً لوجه مع الله، وانتفت فكرة "الاستحقاق" الذاتي، وعمر القلب بفكرة الاتكال على صلاح الله وجوده. وهنا تشير المسيحية إلى ناموس المحبة. وربما يمج البوذي أكثر من سواه كل تعليم عن كفارة المسيح مما لا يأتلف مع شعور العدالة. ولكن حقيقة محبة الله الغافرة التي لا تتجاوز عن الخطية بل تحملها في نفسها، توقظ في قلب البوذي الشعور بالخطية، والحاجة إلى إعادة الصلة المنقطعة مع الله.

ففي البوذية كثير مما يعبد الطريق وبعدها لقبول المسيح. ومتى اخلص البوذيون لبوذا يصيرون إلى المسيح أكثر اقتراباً. لأن النموذج الأخلاقي الذي وضعه بوذا لا يعلو عليه نموذج آخر في المبادئ التي وضعها أصحاب الأديان الأخرى –سوى المسيح. والفارق أن بوذا دعا إلى ثقافة إنسانية، أما المسيح فقد أدخل حقيقة الله إلى حياة بني الإنسان.

الهندوسية

(وهي دين الغالبية في بلاد الهند)

من ألذ البحوث وأمتعها في عالم الدرس، البحث في أديان الهند. والهندي بطبيعته إنسان متدين يشغف بالروحانيات. ونحن إذا راقبنا عن كثب مفكريها وزهادها، وكيف يصارعون مشاكل الحياة والموت، ويسعون دائبين إلى معرفة الله، لا يسعنا إلا الإعجاب بزهد الألوف والربوات من شعوبها وتقواهم وورعهم.

وفي بلاد الهند أديان كثيرة. ولكن الهندوسية (Hinduism) هي دين الغالبية. وليس لها مؤسس يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها. ولكنها دين التطور، وبين ثناياها وثنية ساذجة، وآراء فلسفية سامية، وزهد صادق –كل هذه ممتزجة معاً بحيث يصعب الإلمام بالدين كله جملة واحدة.

الكتب المقدسة: Vedas

في تاريخ بعيد يرجع إلى سنة ١٥٠٠ ق.م. أخذ قسم من الجنس الآري يستوطن الأقاليم الغربية في بلاد الهند. وذهب قسم آخر إلى بلاد فارس، فكأنهم من السلالة عينها التي أنتجت أجناس الكلت والتيوتون والسلاف. أما دين أولئك المستوطنين الأولين فنجده في

أناشيدهم المقدسة Vedas. وآلهتهم هي الطبيعة والسماء وإله المطر وإله النار وما شاكلها. والهندوسية دين فرح متهلل، ويخيل إلينا أن أتباعه يعيشون دائماً في ربيع العالم، وآلهتهم ملتمعة براقة، ويلتمس الأتباع منها أن يعيشوا مائة من السنين، ومن ثم يترقبون الانطلاق للقاء أحبائهم في السماء.

وتقرب بعض أناشيدهم إلى الوحدانية. ونرى في شكل إله السماء Varuna آثاراً لبداية الاعتقاد بفكرة إله أدبي، التي كان يحتمل أن تتطور إلى فكرة روحية رفيعة الشأن.

ويتجه الميل عندهم إلى التفاضل بين آلهتهم المختلفة، والتفكير في كل منها بدوره كأنه أسمى من غيره. وما تزال فكرة تعدد الآلهة هي الغالبة حتى اليوم في الهندوسية. ومع أن دين الكتب المقدسة Vedas قد اندثر تماماً في بلاد الهند، فإن الكتب ذاتها ما برحت موفورة الكرامة تتلى بعض آياتها في العبادة والحفلات.

والكلمة veda تشير إلى الكتب القديمة التي يرجع تاريخها إلى ٨٠٠- ٥٠٠ق.م. وعنها تطور ونشأ العنصر الكهنوتي، وارتقت الناحية الفلسفية في الدين. ولم يلبث الدين الآري الساذج حتى استحال إلى دين قوامه الذبائح والطقوس. ومما يقال إن الكتب البرهمية شملت من مصطلحات "الذبائح" أكثر مما جاء في كتب اليهود، أو أية مؤلفات أخرى. وأما الطقوس، فوراءها رغبة التملص

من الخطية والتصالح مع القوة السامية في الكون أينما كانت. ومع تطور فكرة الذبائح تطورت الفكرة عن الله، فهو الآن في نظرهم جوهر الكون والحقيقة بأكملها، السائدة كل الأشياء والمتداخلة في كل الأشياء. والاسم الذي يطلق عادة على هذا الجوهر غير الشخصي هو "براهما Brahma"، ويسمى أيضاً "Paramatma أو الذات السامية". وليس لهذا الجوهر صفات، ولا يوصف إلا بالأوصاف السلبية –أي لا يقال عنه أنه صالح أو عامل، لأن هذه الأفكار جامدة ومعينة وثابتة، والروح اللانهائي يمسي محدوداً متى أطلقنا عليه هذه الأوصاف. والكلمة التي تطلق عادة على النفس البشرية Atma تدل على أن تلك النفس مقترنة ومتحدة بالذات السامية Paramatma– و"براهما" هذا ليس خالقاً، فهو فكرة ذهنية أكثر منه إرادة عاملة. وإنما يُظن أنه خلق العالم على النحو الآتي: أخذ براهما يتأمل ويفكر، وعن تفكيره هذا نشأت بذرة مخصبة، تطورت إلى بيضة ذهبية، ومن تلك البيضة ولد براهما (مذكر) خالق كل الأشياء. وهذه الفكرة صعبة معقدة أمام عقل القارئ، ولكن حسبنا أن نقول هنا إن جوهر الكون –الله– عندهم هو إله غير شخصي، impersonal، ومع هذا البراهما "غير الشخصي" تقترن النفس البشرية وتتحد فيه.

وهـذه الأفكـار الدينيـة الفقهيـة مضـمرة غـير محـدودة في كتـبهم المقدسة القديمة، ولكن المفكرين المتأخرين هم الذين صاغوها أفكاراً في نظام متلاصق. وما تزال هذه الكتب المقدسة المصدر القديم الذي يلجأ إليه المفكرون ورجال الدين.

نظام الطبقات

ولابـد مـن كلمـة هنـا عـن كيفيـة نشـوء البراهمـة وظهـور الطبقـات. فالبراهمـة كمـا يؤخـذ مـن مـدلول اسمهـم يتصـلون في طبـائعهم بالعنصـر الإلهي. فهم كهنة الأمة لا تجوز الذبائح إلا في حضرتهم وعلى أيديهم. وهـم شـعب مختـار يقضـون حيـاتهم تحـت شـروط صـارمة وفي مظـاهر عابسـة. والحق أن تطور البراهمـة قـد استغرق أجيالاً طوالاً ونشـأ عنـه مسـاوئ شـنيعة، ولكـن لبـاب الفكـرة هـي إنشـاء كهنـوت ملكـي لا يتدنس بلمس الخلائق الوضعية، كهنوت مفروض عليه الحياة المقدسة الطاهرة.

والبراهمـة هـم أسمـى الطبقـات. أمـا الطبقـات الأخـرى فكانـت في الأصـل (المحـاربين) و(التجـار) و(الخـدم). وقـد كـان المحـاربون أولاً أسمى الطبقات وأرقاها فحل البراهمة محلهم. ويرجع هذا التمايز بين الطبقات إلى العصور السحيقة. ولعله راجع إلى رغبة الغزاة الآريين القدماء في حفظ سلالتهم نقية. فلا يدنسها الامتزاج بالسكان الوطنيين في بلاد الهند، وهم جنس يختلف عن جنسهم، أسمر منهم في اللون وأحط في

درجة الرقي. والطبقات الثلاث العليا تمثل الأقسام الثلاثة الأصلية للهيئة الاجتماعية في عصورها الأولى. وأما الطبقة الدنيا فهم الخدم والأَجرى في الهيئة. وبعد هذه الطبقة الدنيا يجيء المنبوذون في نظام الطبقات (outcastes) –وهم في الأصل فريق من سكان البلاد الأصليين حالت وضاعتهم دون اعتبارهم حتى بين الطبقة الدنيا من الخدم والأجراء. وقد قضت الهندوسية في عصورها المتأخرة أن يُوكل إلى البراهمة دون سواهم الوظائف الكهنوتية التي تفرضها الكتب المقدسة. وليس معنى هذا أن كل البراهمة منخرطون في سلك وظائف الكهنة، ولكن هذه الوظائف لا تُعطى لغير رجالهم. ونظام الطبقات هذا بما أنطوى عليه من الحظر الديني في امتزاج الناس بعضهم ببعض، والإحساس الحاد القوي بالميزة الاجتماعية واللونية، هو الرابطة التي تقوي الوشائج بين الهندوس في الهند، وهو في الوقت نفسه الحائل القوي دون تقدم الهند ورقيها. فالإنسان قد يولد فرداً في طبقته، أو قد يولد منبوذاً من كل طبقة. وفي أحياء كثيرة يُعتبر مجرد لمس المنبوذ دنساً ورجساً في نظر آخر من أبناء الطبقات. وفي أحياء أخرى يلحق الدنس والرجس بالشخص إذا مر به المنبوذ على بعد بضعة أمتار. وفي كل مكان ترى قواعد صارمة تمنع المؤآكلة بين أبناء الطبقات المختلفة أو تناول طعام لمسته أيدي أحدهم. والخطر كل الخطر في مخالفة هذه القواعد. أما التزاوج بين الطبقات فقد حرم من زمن بعيد، وما يزال

هذا الحرمان قائماً في أشد أوضاعه.

والحق أن لنظام الطبقات في بلاد الهند على ما هو عليه من صرامة وجمود أبعد الأثر في حياة الشعب الهندي. فهو يقضي بإقصاء خمسين مليوناً من المنبوذين عن الحياة العامة إقصاءً تاماً، وهو ظل قاتم يتبع المرء في يوم مولده إلى يوم حتفه. فهو قد يفكر ما شاء له التفكير، ولكنه يوم يعتدي على قواعد نظام الطبقات، فقد أمسى لساعته طريداً محتقراً Pariah لا يُقام لوجوده وزن بين أسرته وأصدقائه والذين عاش فيما بينهم، أمسى كلباً منبوذاً شارداً outcaste.

تعاليم ثلاثة خطيرة: تجوال الروح، الأعمال، الانطلاق

وعلاوة على الكتب الهندية المقدسة وما احتوته من الأحكام والأناشيد، فهناك فِكَر ثلاث تؤثر أعمق الأثر في العقلية الهندية– أولها فكرة تجوال الروح. فهم يعتقدون أن الأرواح جائلة متنقلة في أطوار شتى من الوجود. تنتقل من جسد إلى آخر، سواء أكان في الإنسان أم الحيوان، في طريقها إلى هدفها الأخير. وهذه الفكرة التي تُعرف عادة بتناسخ الأرواح، والتي لها نظائر في كثير من بلدان أخرى، متأصلة تأصلاً عميقاً في قلب الهند.

أما الفكرة الثانية فهي فكرة الأعمال (Karma) وهي متممة لفكرة تجوال الروح. وهي لا تعلل فقط حقيقة أدوار الميلاد المتكررة

التي تنتقل فيها الروح، بل تبين أيضاً شرائط هذا الميلاد، وما يستتبعها من عدم المساواة الصارخة في المصير البشري. وتقوم النظرية على أن كل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتماً، وأن كل شيء يختبره الإنسان في كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التي يأتيها في الوجود السابق، وهي بمثابة كفارة.

والكرما معناها العمل. وفي هذه الحالة العمل الذي لابد منه في الحياة. فهناك ناموس جامد للعلة والمعلول، للعمل والجزاء. وقد عرف الهنود الآريون –كما عرف العبرانيون فيما بعد– أن الجزاء في هذه الحياة الحاضرة لا ينسجم مع العمل ولا يتكافأ معه. لذلك ابتكر الهنود نظرية تناسخ الأرواح لحل هذا الإشكال. فجسد الإنسان وأخلاقه ومولده وثروته واختباره وسعادته وآلامه –هذه كلها جماع الجزاء الذي تستحقه أعماله التي أتاها في وجود سابق، صالحة كانت أو شريرة.

والأعمال التي يأتيها المرء في وجوده الحاضر، صالحة كانت أو شريرة، تهيئ طوراً جديداً للتفكير والاستغفار. وكأن كل إنسان مربوط إلى عجلة تدور دورات متتاليات لتقرير مصيره المحتوم في نهاية الأمر. وهو لا يقدر أن يوقف أو يبدل عملية هذا التطور والدوران المستمر، ولا يمكن لأي إنسان آخر أن يعينه في ذلك. ولناموس "تجوال الروح" الآن –أو على الأقل كان له من قبل– قيمة أدبية خاصة إذ ينطوي

على مسئولية أدبية، ولكنه يسلب الحياة معناها ويجردها من كل أمانيها الاجتماعية. فكل فضيلة، وكل تضحية للذات، يجب أن تتجه إلى خدمة النفس وخيرها دون سواها. ثم أن فكرته في النظام الأدبي لا تعدو حد العقوبة أو المثوبة، أما فكرة افتداء النفس أو غفران آثامها فبعيدة عن هذا الناموس كل البعد. وكأن الله قد ربط كلاً منا إلى عجلة دائرة تتناوبها الأفراح والأحزان، ويبقى هو بعيداً عنها لا دخل له فيها.

ومن نقائص "الكرما" أيضاً أن الذاكرة لا تتخطى الثغرة القائمة بين وجود وآخر. وقد قيل أن هذا التعليم يعني "أن ما يزرعه الإنسان إياه يحصد"، ولكن من المتعذر علينا حقاً أن نرى القيمة الأدبية في عقاب يحل بحياة عن أعمال في حياة سابقة لها، إن لم يكن هناك شعور يقرن الحياتين معاً.

أما الفكرة الثالثة، أو التعليم الثالث، فهي فكرة الانطلاق، وهي تمثل محاولة النفس الإفلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها. فالحياة الشخصية في عرف القوم شرق وأسر وخداع. أما الحياة الحقة فهي استجلاء طلعة "براهما" التي لا يُكتسب إلا بالاندماج فيه، كما تندمج قطرة الماء في المحيط الخفم. وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج في الكائن الأسمى. وهذا الانطلاق لن يُكتسب بالأعمال، لأن الأعمال الصالحة تنتج ثمارها عن طريق

الميلاد المتكرر، كما تفعل الأعمال الشريرة تماماً. إنما يجيء الانطلاق عن طريق الاستنارة الإلهية. وقد أفسد هذا ما في "تجوال الروح" من القيمة الأدبية. لأن الأهمية معلقة على فضائل التصوف والزهد، وليست على الأعمال الصالحة التي لا ينشأ عنها إلا ميلاد أفضل ووجود أرقى من الوجود السابق الذي كان عليه الإنسان. وليس للأعمال الصالحة شأن في الانطلاق المروم. إنما عن طريق التأمل والزهد تقف دورات الحياة. ويبطل تطور الوجود، ويتحد الإنسان بالله.

مؤثرات البوقية

ثم ننتقل إلى نواح أخرى: فمن سنة ٥٠٠ إلى سنة ٢٠٠ق.م. قامت البوذية في بلاد الهند وترعرعت. ولعل نهوضها في تلك الفترة من الزمن يرجع إلى تمرد القوم على إجراءات رجال الكهنوت وسوء استعمال سلطتهم، ولو أن هذا ليس من الأمور المؤكدة على وجه التحقيق. ولم يُعن بوذا بالله، إنما عُني قبل كل شيء بطريق الحياة السوي. والواقع أن ما تضمنته الهندوسية من فضائل، كدعة النفس وبساطة الحياة والتواضع، ترجع في الأكثر إلى مؤثرات بوذا. وإليه أيضاً يرجع الفضل في احترام حياة الحيوان، فإن فكرة الامتناع عن ذبح الأبقار وأكل لحمها التي يعتنقها كل هندوسي يرجع تاريخها على الأرجح إلى ذلك العصر البعيد من الزمن.

ظهور فكرة التجسد

وقد كان للاحتكاك بين البوذية والهندوسية أثر آخر على الأخيرة. فإن ما انطوت عليه البوذية من الإلحاد والآداب الباردة لا يُرضي الإنسان العادي ولا يشبع شيئاً من حاجات نفسه الدينية. وكان هذا مع المؤثرات الأخرى حافزاً للهندوسية لأن تخرج فكرة "المظاهر المتجسدة للآلهة incarnations". وهي فكرة لم تظهر في الوجود إلا حوالي سنة ٥٠٠ق.م. أي بعد غزو البوذية لبلاد الهند. وقامت هذه الفكرة على أن Vishnu الإله الحافظ وSiva الإله المدمر–كونا بالاشتراك مع "براهما" ثالوثاً بدت مظاهره المتجسدة في أوضاع شتى. وكان من نتيجة ذلك أن عُبد Siva إله الدمار تحت اسمه وأسماء أخرى بالاشتراك مع زوجته Kali. وأكثر عبادة هذا الإله قائمة على البطر والفسق. ومع ذلك فقد نشأت في جنوب بلاد الهند جماعة عمدت إلى كتابة مؤلفات خشوعية دينية حول اسم Siva هي أنبل ما أخرجته بلاد الهند من الكتب الدينية. أما الإله Vishnu فله مظاهر متجسدة كثيرة: أهمها في Rama وKrishna –وقد جاءت قصة Rama وزوجته في إحدى أقاصيص الهند الشعرية العريقة في القدم. وأما المظهر المتجسد الآخر Krishna فقد جاءت روايته في قصة شعرية أخرى يعجب بها الهندوس إيما إعجاب، ويعدونها "جنة رائعة قد نضجت ثمارها اللذيذة وأينعت أزهارها الفياحة، وترويها

ينابيع دائمة على مدار السنة".

وفي أواخر تلك الفترة من الزمن ظهرت مؤلفات اصطبغ فيها "كرشنا" بألوان مختلفة. وهو في تلك المؤلفات المظهر المتجسد للشهوة. وكان لأقاصيص غرامه أعمق الأثر في إفساد حياة الملايين في بلاد الهند. وهذا مثل على فساد فكرة التجسد عند القوم. فقد كانت سلاحاً خطراً، وحول أبطالها ومظاهرها صنف الناس أقاصيص شتى صالحة وشريرة على السواء. أما الحق التاريخي فقلما أعاره القوم شيئاً من عنايتهم. وكان من جراء ذلك أن أندمج في سجل الآلهة عدد لا حصر له من صغار الآلهة تتفاوت أقدارهم الأدبية. فأخذت الهندسية في التدهور والانحطاط.

وفي الهندوسية الحديثة نهضتان بارزتان. أولهما تعاليم (Vedanta). فإنه في الخمس مائة سنة ما بين ٥٠٠ و١٠٠٠ب.م. لم يُعرف إلا القليل عن تاريخ الهندوسية. ولكن ظهر في القرن التاسع زعيم ديني يدعى "سنكاراشا"، فنادى بما ظنه المبادئ الطاهرة النقية المنطوية تحت الأناشيد الدينية التي تضمنتها كتبهم المقدسة Veda، وأطلق على نظامه اسم Vedanta، وهي الفلسفة التي يشغف بها الهندي المثقف في هذا العصر. ويراهما في نظر هذا الزعيم هو الحق، والأنفس المفردة واحدة فيه. فإذا ما فرغت سلسلة التوالد، وأبطلت الروح تجوالها من وجود إلى آخر، اندمجت في

براهما وصارت واحداً فيه. ويضيف الزعيم إلى ذلك أن الكون ليس حقيقة غامضة مبهمة وحسب. بل هو وهم وخداع وطيف زائل. وأنفس الأفراد مندمجة في الحقيقة مع براهما. وهذا الطيف الزائل، أي العالم، هو الحجاب الوحيد الذي يحول دون تحقيق هذا الاندماج وتوحيد الذاتية. والخلاص يجيء عن طريق هدم هذا الحجاب، وتبديد هذا الخداع المضلل والطيف الزائل. وقد تملكت هذه الفلسفة من عقل الهندوسي واحتلت هذه الفكرة –فكرة وهمية الكون وزواله– مكانة سامية في تفكير الهنود بحيث أضحت تسير جنباً إلى جنب مع التعاليم الثلاثة الأخرى وهي: تجوال الروح –وتأثير الأعمال– وانطلاق النفس أخيراً.

وأما النهضة الثانية فهي فلسفة الخشوع والتعبد Bhakti التي ظهرت في الفترة ما بين ١٤٠٠ و١٨٠٠ب.م. وتقترن بأسماء ثلاثة من كبار الزعماء الذين أسسوا مذاهب السكيين وغيرهم. وهم قد أدخلوا إلى الفلسفة الهندوسية التي تدين بكائن أسمى غير شخصي، لا ذات مستقلة له –فكرة الإله الشخصي الذي يليق له التعبد والخشوع. ولعلهم تأثروا في ذلك بالآراء الإسلامية التي كانت قد ظهرت في الهند في ذلك العصر. ونبغ بين دعاة هذه الفلسفة قديسون أظهرهم "تولسي داس" الذي عاش في القرن السادس عشر، والذي نقل الأقاصيص الدينية المقدسة إلى لغة عامة الشعب، فتناولتها العامة

وراحت تنشدها في قرى الهند، وتتلوها في كل مكان، وتمثلها في الأعياد والمواسم.

وكان أولئك القديسون، بما أدخلوا على الديانة الهندوسية من فكرة الإله الشخصي الذي يليق له التعبد والخشوع، أسمى من مثلوا فكرة الإيمان بالله في بلاد الهند، وهم ينتمون إلى طبقات مختلفة، وكثيرون منهم من عامة الشعب، فبينهم النساجون وصانعو الفخار الذين خلوا من المواهب سوى الإلهام الديني. وكان بعضهم من المصلحين حقاً الذين نبذوا الأوثان وفوارق الطبقات ومجرد الطقوس الظاهرية، وأحسوا بوجود الله إحساساً غريباً. وهم قد آمنوا بإله سام ولو أنهم في بعض الأحيان قد أخرجوا أفكاراً غشيمة فجة، وعزوا بعض الأفكار الروحية المتعلقة بالله إلى أشباح ورموز غير لائقة.

ولقد أصر أولئك القديسون المتعبدون Bhakti على النعمة التي قد تكون تمهيداً لتعليم أعمق وأرقى. على أنه ينبغي أن نعلم أن الخلاص أو "الإطلاق الذي تكلم عنه القديسون والحكماء –حتى في دين جماعة الBhakti– انصرف فقط إلى الخلاص من سحر العالم وغوايته، ومن تعذيب الولادة المتكررة، ومن التجوال الذي لا نهاية له من وجود إلى وجود بعده.

دين المنبوذين

ومن المؤلم حقاً أنه في كل هذه الأدوار التي أخصبت الأفكار

والممارسات الهندوسية لم يكن للمنبوذين Outcastes ثمة نصيب. وقد يكون مثاراً للنزاع أن نعدهم طائفة من طوائف الهندوسيين. فإنه لا تشابه بين دينهم وبين العقائد التي شرحناها، فدينهم في مجموعة أشبه بعبادة الأرواح التي اعتصمت بها الأقوام الفطرية الساذجة. وأعظم الآلهة في قرية المنبوذين ليس "سيفاً Siva" ولا "فشنو Vishnu"، بل ربما كومة من الآجر تمثل أم القرية أو شيطانها، الذي يمنح الخصب للعواقر، ويحمي المحصول من الآفات، ويرعى القرية برعايته وعنايته. وقد يكون للمنبوذ فكرة غامضة مبهمة عن كائن سام عظيم، ولكنه إلى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشريرة. وحالته الاجتماعية الدينية في أحط الدركات، والهندوسية المحافظة لا تُعنى به شيئاً.

جهود المصلحين

وفي السنوات الأخيرة بُذلت الجهود المتوالية لرفع شأن أولئك المنبوذين وتحسين حالتهم السيئة. ونهضت جماعات في بلاد الهند للإصلاح ارتضت قبول المنبوذين في عضويتها رغبة في تطهير الهندوسية من هذه اللوثة اللاصقة بها، والقضاء على فكرة التمييز بين الطبقات.

وبين تلك الجماعات Brahma Samaj وهي طائفة تؤمن بالله. ووجهة نظرها في الله وفي يسوع المسيح أشبه بوجهة نظر من

نسميهم "موحدين Unitarians". وهي تكاد تكون منفصلة عن الهندوسية الأصلية، قليلة العدد، يعوزها العزم والقوة، ولكنها أدت بعض الخدمات النافعة إلى طوائف المنبوذين. وأمثال هذه جماعات أخرى نهضت لمكافحة هذه السيئة الاجتماعية، وهي حين تصدر عن الهندوسيين المحافظين، يكون الباعث إليها الحسد والغيرة من المسليات المسيحية، التي تعمل ناشطة لرفع شأن أولئك المنبوذين واكتسابهم إلى أحضان المسيحية التي تقدس الشخصية البشرية مهما كانت وضيعة. ومع أن الضمير الهندوسي المثقف قد أدرك ما في نظام الطبقات من سوء وشناعة، فإنه لم يفعل حتى الآن شيئاً جدياً للخروج عن تلك التقاليد الجامدة التي أحكم المحافظون الرجعيون حياكتها حول أولئك المنبوذين التاعسين الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً.

الخلاصة

ونستخلص من هذا البحث أن الديانة الهندوسية تشمل طرائق دينية كثيرة منفصلة بعضها عن بعض، وهي ذات معان متعددة مختلفة. ويمكن تلخيصها فيما يلي:

يُحسب الهندوسي هندوسياً متى ولد في طبقة من الطبقات المعروفة وحافظ على تقاليدها وقواعدها، ولو أن كثيرين من المثقفين يعتدون على هذه القواعد الوضعية ويتملصون منها. ويؤمن الهندوسي بنظام الطبقات، ويحترم أسفاره المقدسة Vedas ويوقر البراهمة. ثم يحسب

البقرة مقدسة، وتتسلط على عقله معتقدات تناسخ الأرواح، وانطلاق النفس أخيراً من قيود هذا التجوال وآثار أعماله صالحة كانت أم شريرة، ثم يميل به الرأي إلى مذهب الحلول الإلهي في الطبيعة. وهو إن كان مثقفاً مهذباً فهو ينكر تعدد الآلهة ولا يؤمن بها. وإن كان وطنياً متحمساً ومن رجال أحزاب الإصلاح فهو يرتاب كثيراً من صحة نظام الطبقات. وإن كان برهمياً، فهو يؤمن بالأوضاع الأولى للديانة الهندوسية ويحفظ الطقوس والمراسم القديمة، ويعبد الإله "سيفا" أو الإله "فشنو"، ويدرس الأسفار المقدسة أو بعض المذاهب الفلسفية الهندوسية. وأما إن كان قروياً عادياً، فيحفظ الطقوس ويعبد "راما" أو "كرشنا" أو "سيفا" أو الإله القرد أو زوجة الإله سيفا. وإن كان منبوذاً فإلهه شيطان القرية.

وللهندوسية أوضاع شتى تتفاوت بين فلسفة الحلول الإلهي في الطبيعة، ثم تأخذ في الانحدار حتى تصل إلى عبادة الأرواح الشريرة. ومن الصعب جداً التمييز بين هذه الأوضاع المتفاوتة. ولعلنا نقرب إلى الصواب إذا قلنا أن أقوى العوامل تأثيراً في الهندوسيين من أعلى الطبقات إلى أدناها هي:

١- نظام الطبقات.

٢- الفكرة بأن الله هو الحق الوحيد.

٣- الفكرة بأن العالم وهم وخداع وتضليل.

٤- ثم الفكرة المثلثة عن الأعمال (الكارما)، وتناسخ الأرواح، وانطلاق النفس واندماجها في الكائن الأسمى.

أية فكرة عن اللّه تشبع قلب الهندوسي؟

وبعدُ، ما الرسالة المسيحية لأمثال هؤلاء القوم؟

إنها قبل كل شيء تحمل إليهم رسالة الله. لأنه وحده دون سواه مستطيع أن يشبع قلب الهندوسي التائق. وقد عرفنا من بحثنا في طرائق التفكير الهندوسية عن الله أن للقوم اتجاهين. الأول التفكير في الله إلهاً مجرداً عن الشخصية. هو روح العالم، وهو الحق الوحيد الجاثم وراء خداع وبطلان هذا الوجود العالمي والاتجاه الثاني تصور الله في أشباح متجسدة مثل راما وكرشنا وما أشبه. فالاتجاه الأول يحتفظ بسمو الله وصفاته الجامعة، ولكنه لا يعطي القوم إلهاً يرفعون إليه الصلاة. والاتجاه الثاني يشبع رغبات الإنسان من حيث تعيين صفات الله وتحديدها، ولكنه يفقد معالم صفات الله الجامعة المطلقة. ولهذين الاتجاهين آثار ظاهرة في حياة الهنود كما نشاهدها في هذا العصر. والذي يرومه الهندوسي وتتوق إليه نفسه الجائعة لن يجده إلا في الله المعلن في المسيح. إذا تحمل إليه الرسالة المسيحية إلهاً جامعاً سامياً، هو صانع الكون والحال فيه. وهو فوق ذلك معلن في التاريخ البشري، وفي وجه بشري -إلهاً هو المحبة.

الغفران

ويجيء الإيمان الصحيح في الله بشيء آخر تفتقر إليه بلاد الهند، وهو الشعور بالخطية والحاجة إلى الغفران. ولا يعوز بلاد الهند الحنين إلى الافتداء، ولكنه عندهم افتداء من ضيقات هذا العالم الحاضر وويلاته، افتداء من خداع الحياة وأباطيلها التي تحجب عن الأنظار وجه الكائن الأسمى. فهي لا تروم الفداء من بطش الخطية وسطوتها، ولمن يمكنها أن تفعل ذلك. وهي تترنح بين إله مجرد عن الشخصية، وآلهة محدودة القوى ناقصة في الكمالات الأدبية. والذي تفتقر إليه الهند رؤيا الله القدوس، الذي تعلو قداسته فوق كل المعايير البشرية. وقد تأصلت في نفسها بفضل عقيدة "الكارما" الفكرة بأن كل عمل يأتيه الفرد ينتج أثره، وأن الخطية تنال عقابها بموجب ناموس جامد لا هوادة فيه. ولم تنهض قط إلى إدراك فكرة الغفران، لا الغفران الذي يتجاوز عن الشر في تراخ وإحساس بليد، بل الغفران الذي يحمل الخطايا إلى قلب "الله" ذاته.

مبدأ الإخاء

ومن الهبات التي يمكن أن تفوز بها الهند من المسيحية روح الإخاء. وهين أن نقول إن الغرب لا يبدي للملأ شيئاً من آثار المسيحية من هذه الناحية. وعلى الرغم من هذا فإنا لا ننسى أن المسيحية قد ألغت الرق. وحيثما تذهب المسيحية ويكون الإيمان

بالمسيح حقاً، وفعلاً لا يسع أتباعها إلا أن يشعروا أن المسيح قد جعل الكل واحداً. ولن يقول مكابر أن في المسيحية شيئاً من هذا التمييز بين الطبقات. لأن مثل هذا النظام يدعو إلى إخاء محدود بقيوم وأحكام، يقتصر على أفراد الطبقة الواحدة أو الطائفة الواحدة كما تفعل بعض الأديان الأخرى، أما في المسيحية فالإخاء رابطة جامعة شاملة. ولهذا نرى المنبوذين الأنجاس في بلاد الهند يهرعون إلى الكنسية المسيحية جماعات وزرافات بحيث يتعذر على المرسلين هناك تلبية كل الطلبات. والمصلحون من الهندوسيين يعترفون بهذا الفضل للمسيحية. فقد قال "رام موهن روي" الشهير، وهو صاحب الفضل في إبطال عادة إحراق الأرملة مع بعلها المتوفي: "لقد تبين لي من البحوث الطويلة الدقيقة في الأديان أن تعاليم المسيح أكثر انطباقاً على المبادئ الأدبية، وأكثر ملائمة للخلائق العاقلة من أي تعاليم أخرى".

الدين العملي

وأخيراً نشير إلى عنصر له شأنه في رسالة المسيحية بالنسبة للهند. ذلك أن الإيمان بالمسيح ينتشل الهند من ربقة التشاؤم من العالم الحاضر ويعينها على أن تظفر بقداسة وخلاص عمليين بكل معنى الكلمة. ولسنا ننكر أن الهند تدرك حقيقة العالم الروحي، ولكنها استنامت إلى خلاص هو الانطلاق من عالم مضن مُنهك. وليس ملكوت الله في نظرهم نتيجة جهود الإنسان وأعماله، فلا شأن

للهنـدي بالمبـادئ الدينيـة ذات الصـبغة العمليـة. أمـا الحيـاة في نظـر المسـيحي فهـي الميـدان الـذي تكمـل فيـه إرادة الله، وممالـك الأرض سـتكون يومـاً ملـك الله ومسـيحه: وفي التلمـذة المسـيحية جهـد فـائز، وقوة نابضة، وانتظار عملي. وسيأتي يوم يجد فيه التائقون إلى الانطلاق خلاص نفوسهم الحقيق في المسيح، وفي خدمته في عالم البشر.

الكنفوشية

وغيرها من أديان بلاد الصين

يختلف شعب الصين اختلافاً بيناً عن شعب الهند. فالهندي يمتاز بالانغماس في الأشياء الروحية، والإيقان في طبيعة العالم الزائلة المتقلبة. والتفكير العميق في الله. أما الصيني فبحسب طبيعته لا يهتم إلا قليلاً في هذه الشئون. وفي بلاد الصين يقطن شعب بقي مدى الأجيال في عزلة عن العالم، من فجر التاريخ إلى هذا العصر الحديث، وكان لهذه العزلة أثرها في تكوين أخلاق قومية بارزة وشعب ذي طبع عملي قليل المبالاة، فخور بتاريخه الاجتماعي والقومي ونظمه الخاصة. وقد كانت الصين في فنون الحضارة في مقدمة أمم العالم. والآن، وقد شهدت مؤخراً أثار علوم الغرب وثقافته بعد أن تخطت حدودها القديمة، فإنها تدأب بعزم متوثب وهمة فتية في اقتباس تلك القوة والمؤثرات التي اعتز بها الغرب. والذين يعيشون من الأجانب في ربوع تلك البلاد من مرسلين وموظفين إداريين وتجار يعجبون أيما إعجاب بما يرونه من مقدرة ومتانة أخلاق ذلك الشعب العظيم. ولا يقل إعجابهم هذا بسبب ما يشهدون من الفوضى والاضطراب اللذين أعاقا تقدم البلاد في اكتمال حقها من الديمقراطية السياسية.

الدين في بلاد الصين

ما دين الصين؟ ليست الإجابة على هذا السؤال هينة. ففي تلك البلاد أديان ثلاثة الكنفوشية والبوذية والتاوزمية. وليس مستطاعاً أن نقول أن بعض أهليها كنفوشيون والبعض الآخر بوذيون وغيرهم تاوزميون، كما نقول مثلاً أن سكان الهند بعضهم هندوسيون وبعضهم مسلمون، ذلك لأن الصيني قد يكون كنفوشياً وبوذياً وتاوزمياً في وقت واحد! يضاف إلى هذا أن الكنقوشية هي في الحقيقة اسم على نظام ديني قبل أن يظهر كنفوشيوس في الوجود بأجيال كثيرة. وليس للتاوزمية علاقة بالفلسفة التي نادى بها مؤسسها. والطريقة الممكنة التي نختطها الآن هي أن نصف كلاً من هذه الأديان وصفاً موجزاً، ثم نستجمع العناصر الأصلية في الآراء الدينية العملية التي يعتنقها الصيني العادي.

كنفوشيوس

هو مفتاح الدين الصيني. والواقع أنه لم يبتكر الكثير مما يُنسب إليه، وهو ليس قوة دينية شخصية. وإنما قد تمثلت في حياته وكتاباته وجهة نظر الصينية العادية في الحياة والدين. كنفوشيوس هو المثال الذي يحتذيه الرجل الصيني في أسمى أوضاعه. وله في نفوس القوم مكانة التوقير والاحترام ويتخذونه نموذجهم الكامل.

ولقد ٥٥١ق.م. وكان أبوه ضابطاً حربياً ممتازاً من سلالة عريقة

توفي ولما يبلغ ولده الثالثة من العمر، وخلف أسرته في فقر. وقد أنصرف الغلام كنفوشيوس منذ حداثته إلى الدرس والبحث، وخصوصاً درس آداب القدماء. ولما بلغ أشده عُين في وظيفة حكومية وأخذ يتقلب في المناصب بكفاية نادرة. وكان في خلال تلك السنوات يفكر تفكيراً عميقاً في أحوال بلاده، ويكون فلسفته الاجتماعية والسياسية. وفي نهاية الأمر هجر وظيفته الحكومية وانقطع إلى وظيفة التعليم. فأقبل نفر من الشباب من كل رقاع وطنه وجلسوا عند قدميه لينهلوا من مُعين حكمته. ولم يلبث طويلاً حتى ذاع صيته وعلا شأنه. وكان تلاميذه من العلماء المبرزين ونظروا إلى كنفوشيوس نظرة إكبار واحترام تكاد تفوق عبادة الأبطال الأفذاذ. وفي هذا وحده دليل على علو كعبه في التعليم والحكمة. وبلغ صيته مسمع الملك والحاكم في "شو" فدعاه إلى مجلسه فلبى دعوته مغبوطاً لما كان للأسرة المالكة من الكرامة والحب في أعين الشعب. ويقال أنه عند زيارته لعاصمة ملكه التقى بالفيلسوف "لاوتز"، فنهره هذا على اعتداده بنفسه ودعواه أن في طوقه إصلاح العالم بتعاليمه. وبعد أن قضى سنوات في تعليم تلاميذه، والدرس والبحث، وتأليف أسفار في الآداب القومية القديمة، عينه أحد النبلاء ويدعى "لو" في وظيفة رئيس القضاة بالمدينة. ثم انتقل منها إلى رئيس الوزراء، على أن يباح له تنفيذ آراءه في مقاطعة لو. ويقول تلاميذه أنه أصاب في ذلك فوزاً مبيناً، "فالجرائم اختفت.

وكان الشيء إذا سقط في الطريق لا يلتقطه أحد. وصنعت صناديق الموت في ثخانة عادية. وبطل تمييز القبور بإقامة المتاريس عليها. وحدد أسعار واحدة في الأسواق". ولكن منافسيه أوقعوا بينه وبين الحاكم وراحوا يتزلفون إلى هذا الحاكم بتقديم الهدايا من نساء جميلات وعمائر ضخة، فحولوا عقله وفكره عن الأخذ بنصائح كنفوشيوس الحكيم، فاضطر هذا إلى اعتزال وظيفته. ولم يوضع قط فيما بعد في موضع القوة والنفوذ. ومما يذكر له بالفخر أنه لم يسع إلى ذلك يوماً ولم يحد قيد أنملة عما اعتقده حقاً ليرضي الشعور العام، فكرس بقية حياته في تعليم تلاميذه ودراسته الآداب القديمة التي أكمل أسفارها قبيل أواخر حياته، وخلفها تراثاً مذخوراً لبلاده. وتوفى سنة ٤٧٨ق.م.

عبادة شنغتاي

وقبل الخوض في نظم كنفوشيوس لا ندحة لنا عن الرجوع أولاً إلى بدين بلاد الصين قبل عصره: كان دينهم قائماً على ثلاثة أوضاع: عبادة شنغتاي الإله الأسمى، وعبادة الأسلاف، وعبادة الأرواح. ففي عبادة "شنغتاي" نرى مُثلاً روحية سامية. وإلى القارئ بعض العبارات المقتبسة عن الصلوات التي كانوا يرفعونها إلى "شنغتاي" ربهم في فصل الصيف وفصل الشتاء، حين كان يتقدم إليه الإمبراطور كرئيس كهنة نيابة عن الشعب:

"إليك أيها الصانع العظيم يتجه فكري.. وأنا عبدك لست إلا

قصبة مرضوضة ونبتة هزيلة. قلبي قلب نملة حقيرة ومع ذلك فقد نلت لديك شرفاً وحظوة إذ جعلتني حاكماً لهذه الإمبراطورية. وها أنا اعترف بجهلي وعمى قلبي. وأخشى أن أكون غير أهل لهذه النعم الوافرة. فهبني أن أراعي في وقار الشرائع والأحكام، باذلاً جهدي، على الرغم من صغر شأني، لأن أقوم بواجبي بولاء وإخلاص. وعن بعد أتطلع إلى مقامك السماوي، فتعال في مركبتك الفاخرة إلى هذا المذبح. وها أنا خادمك أعفر وجهي في التراب متوقعاً جزيل نعمتك... لترضى بأن تقبل تقدماتنا، وترمقنا بعينيك حين نعبدك، ياذا الصلاح غير المتناهي".

وهذا الضرب من العبادة يرجع تاريخها إلى العصور الأولى في التاريخ الصيني. فمنذ فجر التاريخ كان وراء جميع الممارسات والإجراءات الدينية التي مارسها الصينيون، تلك العقيدة العظمى عن إله سام عظيم، عقيدة أحيطت في بعض الأحايين بسجف من الغموض والإبهام، ولم تظهر ثمارها في الحياة القومية ولكنها لم تبرح قط عن الأذهان. ويطلق على "شنغتاي" هذا (أو الإله المتعالي) في مصطلحات الآداب القديمة لقب "تيان" أو السماء. وهذا هو اللقب الذي شغف به كنفوشيوس نفسه، وجرى على التحدث به كثيراً. وخليق بنا أن نغير التفاتاً إلى طريقة الخطاب التي جرى عليها كنفوشيوس لإله تنقصه عناصر الشخصية. ولعل نفوذه هو صاحب

الفضل في بقاء فكرة الإله العلي المتسامي مجرداً عن الشخصية.

وكان للإمبراطور وحده حق عبادة شنغتاي -نائباً عن شعبه- فأدى هذا أيضاً بطبيعة الحال إلى إبعاد فكرة الإلهية السامية عن محيط العبادة العملية.

عبادة الأرواح

لم تغب عبادة الأرواح قط عن بلاد الصين ولم تنفصل أبداً عن أسمى ما فيها من تعبد. فإلى جانب عبادة الإمبراطور للإله شنغتاي، ترى لوحات تمثل الإمبراطرة السابقة، ولوحات غيرها تمثل الشمس والقمر والنجوم والغيوم والأمطار والرياح والرعود، موضوعة إلى جانب لوحة الإله العظيم وفي مقام منخفض عنها. وإن في قبول آلهة أخرى على هذا النحو، ولو كانت خاضعة للإله الأسمى وأقل منه شأناً، لانحداراً إلى الوثنية. والواقع أن الكنفوشية منذ أن توفي زعيمها مالت إلى ضروب شتى من الوثنية، ولو أنها في الظاهر وبالاسم فقط تعيب الوثنية وتنعيها. وإلى جانب الأرواح التي ذكرنا ظهر عدد غفير من الآلهة ذكوراً وإناثاً ومجموعة أخرى من مبتكرات وأفانين عامة الشعب.

عبادة الأسلاف

وأهم من عبادة الأرواح عبادة الأسلاف. يقول كثيرون أن هذا

هو الدين الحقيقي لشعب الصين. ويرجع تاريخه إلى العصور الخوالي، ومازال شائعاً مألوفاً حتى هذا العصر. وليس يحرص الصيني على شيء حرصه على هذه العبادة، فأنت قد يُباح لك أن توجه الملام إلى أي شيء في الصين. أما أن تمس عبادة الأسلاف بسوء، فهذا ما لا يرضاه الصيني ويصدك عنه في جفاء. والأرجح أن هذه العبادة بدأت أولاً ضرباً من ضروب التكريم للميت بعد الوفاة، ثم استحالت إلى عبادة الأبطال الحكماء من رجال الشعب. وأخذت العادة تنتشر بين القبائل والأُسر تغذوها روابط الأسرة في بلاد الصين، وهي قوية بطبيعتها في تلك البلاد، حتى أصبح كل الأسلاف موضع التوقير والعبادة من الجميع على السواء.

واللوحة المستعملة في عبادة الأسلاف هي عادة "لوحة صغيرة من الخشب يبلغ علوها ثماني بوصات وعرضها بعض بوصات تنقش على وجهها اسم الشخص الذي تمثله". وتحفظ هذه اللوحة في دار الأسرة مدى حياة جيل أو اثنين من أجيال الأحياء عقب انتقال المتوفي، ثم تنقل بعد ذلك إلى هيكل أسلاف القبيلة أو الأسرة. ومن حين إلى آخر تقدم إلى هذه اللوحة التقدمات، وخصوصاً في عيد ميلاد المتوفي أو ذكرى موته من كل سنة. ويقول الجيل النابت في معرض الحديث عن المتوفين: "آباءنا وأمهاتنا" أو "أجدادنا وجداتنا". ولهذا النظام أثر بارز في تقوية نفوذ الأسرة أو القبيلة على الفرد بحيث يعسر عليه جداً

الخروج على التقاليد والعادات المرعية. وأنه ليصعب على المرء أن يدرك المدى الذي يذهب إليه الصيني في عبادة أرواح أسلافه وما تنطوي عليه تلك العبادة من عطف وولاء. وفي أغلب الأحيان تمتزج هذه العبادة بكثير من العطف والحب الخالص للمتوفين، وفي أحيان يخالطها الخوف مما تفعله تلك الأرواح لو لم يعبدها اللاحقون، وفي أحيان أخرى ليست إلا مجرد طقوس وممارسات وضعية جرى عليها العرف والعادة.

هذه هي الخيوط الثلاثة التي يتكون منها نسيج الدين في بلاد الصين: عبادة شنغتاي، وعبادة الأسلاف، وعبادة الأرواح.

العلاقات الخمس

يُقال أن كلمة واحدة –يشار إليها في اللغة الصينية بحرف واحد– هي التي تلخص كل تعاليم كنفوشيوس، وهي لفظة "التبادل"، إذ يقول أن جوهر الحياة الصالحة، للفرد وللأمة، يقوم على حسن أداء الفرد لواجبه ورعايته للروابط التي تربط الناس بعضهم ببعض. وعندهم علاقات رئيسية خمس: علاقة الأمير بالرعية، وعلاقة الأب بالابن، وعلاقة الأخ الأكبر بأخيه الأصغر، وعلاقة الزوج بزوجه، وعلاقة الصديق بصديقه. فإن روعيت كل هذه العلاقات حسُن حال الدولة.

التقوى البنوية

على أنهم يعلقون أهمية كبرى على الرابطة البنوية، وهي في بلاد الصين أشد القوى الأدبية، فإن الرجل قد يذبح أبنه ولا يُعتبر في فعلته إلا متطرفاً في استخدام الحقوق الأبوية. أما إذ قتل الابن أباه، فهذه جريمة فظيعة يُعاقب عليها القانون بأقصى صنوف التعذيب. ويقال بالإجماع أن التشدد في رعاية هذه الرابطة كان لخير البلاد، إنما هذه الفضيلة في نظرنا ذات ناحية واحدة، وليس ما يقابلها في واجبات الآباء نحو أبنائهم. وقد يفرطون في رعاية هذه الحقوق إفراطاً سخيفاً، مثال ذلك ما رُوي عن أحدهم من أنه "كان يخشى أن يدرك أبواه حقيقة تقدمه في الأيام وبلوغه سن السبعين فيرهبا شيخوخته، لذلك كان يرتدي ثياب الأطفال، ويطفر أمام والديه كصبي صغير".

الدولة

وقد دارت تعاليم كنفوشيوس الأدبية في أساسها حول الدولة وعلاقة أبنائها بها، والصفات التي ينبغي أن تتوافر في مليكها وحاكمها، فإذا صلح حال الإمبراطور صلح حال الدولة والشعب. ولقد استمد مبادئه الأدبية ومُوحياته من تاريخ السلف. وأراد أن يوطد حياة الأمة على تلك المبادئ التي أثبت التاريخ الماضي صلاحيتها. أما عن ضمير الفرد وعلاقته بالله، فلم يقل إلا القليل.

وكان اهتمام كنفوشيوس متجهاً في أصوله إلى علاقة الإنسان

بالإنسان. أما عن العلاقة بين الله والإنسان فالظاهر أنه لم يعبأ بها كثيراً. وسلم بعبادة الإله "شنغتاي" القديمة، وكذا عبادة الأسلاف، وأباح شيئاً من عبادة الأرواح لغرض الثقافة الرسمية العامة. ولكن عقله الكبير المفكر أمتهن هذه العبادة جملة واحدة، وخيل إليه أن عبادة القوى غير المنظورة من الأمور غير الضرورية إذا قيست بمهام الإنسان الأخرى. ومن أقواله: "لم نقدر حتى الآن أن نؤدي واجباتنا نحو الإنسان، فكيف نؤديها نحو الأرواح؟". أما عن الحياة بعد الموت فأبى أن يصرح بشيء. والحق أننا مسوقون إلى الإعجاب بإخلاص ذلك الرجل ونزاهة عقله، لأنه يأبى الخوض في أمور لا يدريها. وبينا نأسف لأن آدابه "لم تتأثر بالعاطفة"، فإنا نقر أن موقفه "اللاأدري" كان بمثابة احتجاج ضد عبادة الأرواح الفاسدة، ولعب دوراً نافعاً في تاريخ أمته الديني.

تعاليمه الأدبية

ولقد بلغ كنفوشيوس في تعاليمه مستوى أخلاقياً رفيعاً كان له أبلغ الأثر في حياة بلاد الصين وإلى القارئ بعض أقواله:

"أليس رجلاً فاضلاً ذاك الذي لا يشعر بانزعاج حين يغض الناس الطرف عنه؟".

"اجعلوا الأمانة والإخلاص من المبادئ الأولى".

"إن الرجل الفاضل في كل شيء يحسب البر من الضرورات".

وقد وضع القاعدة الذهبية في صيغة السلب.

"لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يُفعل بك".

وحين سمع أن "لاوتز" قال: "جازوا الشر بالخير" –حار في أمره وقال: "جازوا الشر بالخير! إذاً بماذا نجازي الخير؟ جازوا الأذى بالعدل، والخير بالخير". وربما كان هذا نقصاً أدبياً في نظامه. فإن فضائله هي فضائل الإنسان الطبيعي في أحسن أوضاعه. أما أن تجازي الشر بالخير، وهو شأن الله معنا، فظنه مقياساً أدبياً فوق طاقته.

ثم أن أخلاقياته ضعيفة أيضاً من ناحية الخطية البشرية. فهو يؤمن أن طبيعة الإنسان في أصلها صالحة، ولو أتبع موحياتها قادته إلى الصلاح، أما الخطأ فيعزوه إلى الجهل. وهو لم يدرك صراع بولس مع الجسد الذي تمثل في صرخات المجربين من البشر مدى الأجيال: "الذي لا أريده هذا أفعله". والظاهر أن زميله الحكيم الصيني الآخر "لاوتز" تعمق إلى أبعد من هذا في الحياة البشرية، ولو أنه لم يكن ذا أثر كبير في بلاده.

أهمية كتب الأدب القديمة

لقد أفرز كنفوشيوس شطراً كبيراً من حياته في تنقيح كتب الأدب الصينية القديمة "الكلاسيكيات". وبعد موته صنفت المؤلفات عنه

وعن تعاليمه. ولي هيناً علينا أن نقدر خطورة هذه الكتب في تاريخ الصين. فإن قلنا أنها كتب الكنفوشية المقدسة كان قولنا حقاً، ولكنه بعض الحق ليس إلا.

ويحول ضيق المقام هنا دون التبسط في وصف التعليم الصيني على أنه الشعب الصيني يبزُّ كل شعوب الأرض في شعوره بضرورة التعليم، وفي تكريمه العلم والعلماء. والعامة لا تعرف كثيراً عن الكتب، ولكن تعرف منها أقوالاً مأثورة جرت مجرى الأمثال، ويعلمون أنه لو أتيح لولد أن ينبغ في علوم الأدب القديمة، فإن كل المناصب العليا في البلاد قد تسعى إليه. وقد أدت الإصلاحات التعليمية الحديثة إلى تغيير الموقف بالنسبة لكتب الأدب القديمة، ولكنها لم تبدل موقف الصيني حيال التعلم.

مكانة المرأة

وأما مكانة المرأة في الصين فقد كانت دائماً منحطة وضيعة. وفي قصيدة شعرية قديمة يُروى عن بطل وُلد له بنون فاضطجعوا على وسائد ناعمة... ووُلد له بنات فنمن على الأرض الوعرة! وخلقت المرأة في عرفهم، وهي من الجنس الأدنى، للأعمال الحقيرة الدنيئة. وما عادة حزم الأرجل بأحذية من حديد منذ الصغر -التي أخذت تزول الآن بفضل المؤثرات الغربية- إلا أثر من آثار امتهانهم للمرأة. وكنفوشيوس لم يعمل شيئاً لرفع مستوى الصيني، لأنه في نواح كثيرة

آثر البقاء في المستوى العادي المألوف.

التاوزمية

قلنا أن الكنفوشية هي أكثر الأديان ذيوعاً في بلاد الصين. وهناك دين آخر يدعى "التاوزمية" نسبة إلى مؤسسه "لاوتز". ويذكرنا هذا ببوذا من بعض الوجوه. فقد وُلد حوالي سنة ٦٠٤ق.م. فكأنه كان معاصراً لكنفوشيوس وأكبر منه سناً. كان "لاوتز" فيلسوفاً، بينما كان "كنفوشيوس" سياسياً ومصلحاً أدبياً. وأودع نظامه وتعاليمه في سفر خاص.

وكان في دين "لاوتز" هذا فكرة أساسية عبر عنها بكلمة (Tao) وهي كلمة ذهب العلماء مذاهب شتى في ترجمتها. وإنا لنذكر أن الفكر اليوناني قبل عصر المسيح نشط للتعبير عن المبدأ المسيطر في الكون فقال بعضهم أنه "العقل"، وذهب آخرون إلى أنه "الطبيعة". ثم نشط اليهود أيضاً في ذلك العصر للتعبير عن مظهر الله في التاريخ فقالوا هو "الحكمة"، بينما اصطلح اليونان بكلمة (Logos) للإفصاح عن المبدأ النهائي الكلي لكل الأشياء. وقد شغف "لاوتز" الذي عاش قبل هؤلاء أولئك بنفس هذا التفكير النظري حول المبدأ المسيطر في الكون الذي أطلق عليه (Tao).

ولقد ترجم العلماء هذه الكلمة الصينية فقالوا: العقل، المبدأ، الطريق، الطبيعة –وهي تشبه "الحكمة Wisdom" العبرانية

و"Logos" اليونانية، وإن اختلفت عنهما. وهي تعبر عن المبدأ فيما وراء عالم الطبيعة، كما هو معلن في الطبيعة وفي الجنس البشري.

والظاهر أن المثل الأعلى في تعاليمه هو أن يسمح الإنسان للطبيعة أن تعمل في حياته كيفما تشاء، فلا يركن إلى جهاد إرادته بلا جدوى وكان "لاوتز" رجلاً بعيد النظر ثاقب الرأي، ويقال عنه أنه حين التقى بكنفوشيوس ألمح له إلى خطأ مبادئه الأساسية التي تزعم أن القانون كفيل بإصلاح الإنسان، وقال له في عبارة صينية جرت مجرى الأمثال أن الإنسان لا يفعل الصلاح لأن "أعماق قلبه لا يستقر فيها شيء من الصلاح". وكأنه يردد هنا ما جاء في الإنجيل يوحنا "ينبغي أن تولدوا ثانية". ومن تعاليمه أن يجازي الشر بالخير. وهذا عكس ما دعا إليه كنفوشيوس. ومع ذلك فإن "لاوتز" هذا لم يؤثر إلا أثراً ضئيلاً في بلاد الصين. وذلك لأن رسالته الوحيدة كانت أن يهجر الناس العالم، بينما أنصرف كنفوشيوس في دعواه إلى إصلاح المجتمع.

وليس للتاوزمية شيء من هذا المعنى في هذا العصر إلا في عقول نفر قليل من الكهنة والعلماء. ولم تعد اليوم إلا مزيجاً من الخرافات تدور حل قوى الطبيعة وتكريمها عند وضع أسس المنازل أو حفر القبور. واختلطت بها في سهولة مناجاة الأرواح وقراءة الكفوف والسحر والتعاويذ. ولعل إباء الكنفوشية وقطعتها كل علاقة بمثل هذه المظاهر، هو الذي حمل هذه الخرافات الوثنية على الالتجاء إلى الديانة

التاوزمية. ولقد تسللت إليها الخرافات بسبب ما أنطوت عليه من أسرار غامضة ومعان ملتبسة. وربما كان في هذا الغموض قوتها التي تفتقر إليها الكنفوشية، ولكنها كانت أيضاً سبب ضعفها. وهي بالأسف نقطة الضعف في بلاد الصين هذا العصر.

البوذية الصينية

وفدت البوذية إلى بلاد الصين حوالي بدء العصر المسيحي على يد المرسلين الهنود وبفضل الحجاج الصينيين الذين ذهبوا إلى الهند وعادوا إليها حاملين الرسالة البوذية. فلما استوطنت هناك طرأت عليها بعض التغييرات. فبوذية الهند لا إله لها. ولكنها حين انتقلت إلى الصين مالت إلى الاعتقاد بفكرة كائن مطلق يتمثل في شخصيات مختلفة، بوذا واحد منها. وأشهر تلك الشخصيات في بلاد الصين من يدعونها "كوان ين" وهي عندهم إلهة الرحمة يرفعون إليها الابتهالات في المعابد البوذية.

ثم زالت فكرة "النرفانا" في البوذية الصينية وحلت محلها فكرة الفردوس المادية، وفيه تنعم النفس بالحديث مع الشخصيات الإلهية. والبوذي الصيني لا يفقه شيئاً من معنى "النرفانا" الهندية، ولكنه يعتقد أنه سيذهب بعد الموت إلى فردوس في الغرب.

والصلوات أو على الأقل الابتهالات ذائعة في البوذية الصينية مع أنه لا وجود لها في البوذية الهندية التي شرعها بوذا بنفسه، وفي

بعض رقاع الصين قد أدخلت عجلت الصلاة الآلية التي يستعملها أهالي التيبت.

ثم أن النظام المقدس الذي وضعه بوذا لجماعة الشحاذين الزاهدين قد استحال في بلاد الصين إلى جيش عرمرم من النساك والناسكات، معظمهم في أحط درجات الجهل والغباء.

فكأن البوذية عند انتقالها إلى بلاد الصين قد أمست مادية وابتعدت عن روح مؤسسها، ولكنها استمسكت بطقوس ورسوم جافة. ومع هذا كله فإنه من الخطأ أن نضعها مثلاً في مرتبة واحدة مع التاوزمية، ذلك لأنها فعلت كثيراً في إحياء فكرة الخلاص في بلاد الصين. وبينما عملت الكنفوشية لحمل الناس على الاكتفاء بفضائلهم الذاتية، فإن البوذية قد رسمت أمامهم صورة باهتة لفكرة الخلاص (ليس الخلاص من الخطية، بل الخلاص من العالم المتألم بسبب خطيته)، عن طريق تضحية اختيارية من جانب قوة أخرى. ويقول المرسلون المسيحيون أن التنصر البوذي يفهم حالاً فكرة الفداء المسيحية.

خلاصة الديانة الصبقية

والآن لنلخص ديانة الصينيين: منذ التاريخ القديم سادت فيها عبادة الإله "شنغتاي" وعبادة الأسلاف أيضاً. ثم جاء كنفوشيوس فأقام، بالأسفار المقدسة التي كتبها، وبتعاليمه وحياته الشخصية وأخلاقه، مجموعة من التقاليد مازالت باقية حتى اليوم. فقبل العبادة

القائمة في عصر ومزج فيها تعاليم أدبية اجتماعية اقترنت باسمه، ترمي كلها إلى سلام الأمة ورفاهيتها. وتضيف البوذية إلى هذا كله شيئاً كثيراً من السحر والشعوذة والخرافات ممتزجة بشيء من الدين الحقيقي: أما التاوزمية فهي –ما خلا الفلسفة التي لا يفقهها إلا نفر قليل من العلماء– وضع من أحط الأوضاع للسحر والسفسطة والمماحكة. وهذه الأديان الثلاثة مشتبكة مضفورة معاً وكلها رسمية، حتى البوذية والتاوزمية معترف بهما. ومن دلائل هذا الخلط الديني الغريب أنه على الرغم من الاعتراف الرسمي بالتاوزمية والبوذية. تجد الكنفوشية تذيع مرة كل أسبوعين في كل هيكل كنفوشي نداء تنعي في البوذية والتاوزمية حاسبة إياهما عبادة وثنية، وبعد هذا كله يصح القول أن الصيني هو في الوقت الواحد كنفوشي وبوذي، وتاوزمي.

ويستند التفكير الكنفوشي إلى التعليم، وإلى الحكومة الصالحة العادلة والعلاقة الاجتماعية المنظمة، لترقية النفس البشرية، وهو في هذا يجاري إلى حد كبير التفكير الغربي الحديث. وليس في الكتب الصينية شيء عن تقدير ضعف الإنسان الأدبي وما فيه من غريزة الخطأ، أو الاعتراف بحقيقة الإرادة الشريرة، مما تفرضه علينا فرضاً وجهة النظر العملية في الحياة. لذلك خلت من فكرة إمكان استمداد المعونة من إله، أو قوة للتجديد والإحياء من مصدر خارق للطبيعة.

على أنه يتضح لنا جلياً لدى إعمال الفكرة أن بقاء القيم

السامية البشرية يفتقر دائماً إلى مرساة تثبت في إله ما. أما وجهة النظر التي تذهب إلى أن الطبيعة البشرية صالحة بالضرورة وتستبعد الله كلية، فهذه أعجز من أن ترفع الإنسان فوق المستوى الطبيعي.

نور معرفة الله

هل للمسيحية رسالة إلى شعب الصين الذي ظل هوراً يتعسس طريقه بين آلهة كثيرة؟ –تقدم لذلك الشعب رسالة الله والواحد، الآب، المعلن في يسوع المسيح: ثم هي تهيئ له أيضاً مستوى أدبياً سامياً، أرفع من مستوى كنفوشيوس، وأرقى من مستوى بوذا، وأكثر في تأثيره العملي من الفيلسوف لاوتز– مستوى مشتقاً، لا من فقه الحكماء والفلاسفة، بل من صفات يسوع الذي تلائمت أقواله مع حياته. وحين يفشل البشر أمام سمو هذا المطلب، تجدي عليهم المسيحية خلاصاً لا نصحاً، وقوة من الله تعين على الحياة الصالحة. ثم تضع المرأة في مكانتها المكرمة اللائقة بها، وتلقي نوراً على الحياة بعد الموت. ومن الأسف أن الصين لم تنعم قط برجاء حي في الخلود، فإن البوذية والتاوزمية لم تعطيا إلا فكرة غامضة مبهمة عن الحياة المستقلة أما الكنفوشية فقد صمتت عندها ولم تنطق شيئاً، ولم أن عبادة الأسلاف تنطوي على شيء من المعنى في هذه العقيدة. ولكن المسألة كلها مضطربة غامضة. أما الرجاء المسيحي في الخلود فصاف رائق لا غموض ولا التواء فيه.

والآن، وقد أخذت أنوار الخرافات الفاسدة تتضاءل في تلك البلاد، فلا يجديها إلا النور الكامل الذي يشع من المسيح. أما الحقائق الأدبية الأخلاقية فلن يمكن أن تخلص أية أمة. ولهذا تنشط الديانة المسيحية في بلاد الصين لإنقاذها من العصور المظلمة والتقاليد البالية.

الشنتوية

(والأديان الأُخرى في بلاد اليابان)

اليابان من شعوب الأرض الفتية. فلا يبدأ تاريخها المعروف (إن غضضنا الطرف عن الأساطير) قبل القرن الخامس بعد المسيح. وأقدم الوثائق اليابانية التي يعتمد عليها المؤرخون لا تبعد إلى أكثر من القرن الثامن. وحضارتها مشتقة في أصولها من حضارة الصين. وأنه لمن غرائب التاريخ أن نرى اليابان، وقد اقتبست حضارتها عن الصين، سابقتها في هذا الميدان، تخطو في السنوات المتأخرة خطى واسعة تسبق جارتها في الرقي المادي، وكانت قبل هزيمتها في الحرب العالمية الثانية قوة عالمية يخشى بأسها كبريات الدول.

وحين نصف اليابان كأمة فتية ناهضة حتى بعد هزيمتها، فالذي يدور في أخيلتنا ليس حداثة عهدها نسبياً في التاريخ، إنما هو تلك السرعة الفائقة التي ظفرت بها إلى مقام الزعامة في الشئون التجارية والحربية مما أعدها لأن تقف على قدم المساواة مع الدول الكبرى في معداتها العصرية الحديثة. ولقد نشأت اليابان الحديثة سنة ١٨٦٨ ومنذ ذلك التاريخ استطاعت أن تقلب نظم التعليم فيها وتقيمها على أحدث الأسس، ثم تزج بنفسها في مضمار التجارة الغربية وتصبح

إحدى الأمم الصناعية الكبرى في العالم، وإن تكن لم تسلم من الأهوال التي تصحب النظم الصناعية عادة وخصوصاً في شعب شرقي حيث تضعف شوكة الحدود الأدبية. وفي تاريخها الحديث أثارت حروباً ضد روسيا والصين كان فيها الفوز حليفها. ثم تضامت إلى الحلفاء في الحرب العالمية الكبرى وأثارت حرباً أخرى ضد الصين. وفي الحرب العالمية الثانية هزمت شر هزيمة سلبتها قوتها الحربية. على أنها قد تصبح فيما بعد عاملاً كبيراً في سياسة الشرق الأقصى.

أديان اليابان

في اليابان ثلاثة أديان – غير المسيحية – وواحد منها فقط أصيل فيها نشأ في تربتها. ولقد كان للكنفوشية الصينية أثر كبير في تكييف الأفكار اليابانية وآرائها الأخلاقية، ولكن أثرها مقصور الآن على الطبقات المتعلمة. وليس لها اليوم كبير أثر في بلاد اليابان. أما الدين الأصيل في بلاد اليابان فهو الشنتوية Shintoism وهو نوع من الثقافة القديمة المشتقة من عصور الأساطير العريقة في القدم، وهي اليوم الأداة المختارة للتعبير عن الروح القومية الحية في بلاد اليابان. وهناك أيضاً البوذية المأخوذة عن الهند، وأن تكون قد اصطبغت بألوان ومميزات جعلتها بوذية يابانية أو بوذية شرقية على حد قولهم.

الشنتوية

ولنبدأ أولاً بالشنتوية: وهذا الاسم هو نطق ياباني للكلمة الصينية التي معناها "طريق الآلهة". وهي دين لا ينتسب إلى مؤسس معين خلافاً للبوذية والكنفوشية. ولعلها كانت في أدوارها الأولى ضرباً من ضروب عبادة الأرواح، ثم اختفت في تطور الدين تلك الخواص الفطرية التي ظهرت في الأدوار الأولى، وأن يكن الكثير منها باقياً في الشعور الديني لرجل الكافة في اليابان. وما التعاويذ الخشبية أو الورقية التي تعلق عادة فوق أبواب المنازل، وقطع القماش التي ترفرف فوق الآبار أو الأشجار المقدسة، وحبال القش التي تتدلى فوق أبواب الهياكل –إلا آثار لعبادة الأرواح التي كان مفروضاً على الأهلين استرضاؤها، والتي تلقتها اليابان الحديثة عن تاريخها القديم. وكذا نجد في الشنتوية عبادة الطبيعة، وخصوصاً قوى الطبيعة المنتجة، وهي من خصائص الأديان الفطرية الأولى. ففي اليابان توقير خاص للآلهة الشمس أو كما يسمونها Amaterasu. ومن آلهتهم أيضاً Inari وهو إله الأرز الذي تكثر معابده في الأقاليم التي تنبت الأرز بكثرة في بلاد اليابان. ويطلقون لفظة Kami على كل إله أو شيء يسمو فوق الفرد، كالسماء مثلاً أو سلطان الحكومة.

توقير القبيلة

وفي عناصر تطورات الشنتوية الأولى نرى خير تعليل لقوة سلطانها في هذا العصر. وبين تلك العناصر توقيرهم للسلف من القبائل أو زعماء الجماعات السالفة، وقد كان هذا من المميزات البارزة في الشنتوية في عصورها الأولى. وهناك فارق بين توقيرهم للسلف من القبائل، وبين عبادة الأسلاف في بلاد الصين. ففي الأخيرة تتجه الفكرة إلى الإكبار من شأن الأسرة أو الأب والأم والجدود، وإحلالهم موضع التوقير والعبادة في بلاد الصين. أما في الشنتوية فالفكرة متجهة إلى الجماعة أو القبيلة. وعبادة الأسلاف الصينية ذائعة في بلاد اليابان، ولكنها كنفوشية في أصولها ومكملة لتوقير الياباني لقبيلته وأبطاله وأسلافه.

عبادة الميكادو

وكان رجال قبيلة "يماتو" أشد الناس إحياءً لتوقير السلف من القبائل، وهم الذين صاروا سادة اليابان فيما بعد، وهم بناة مجدها ورافعو لواء عظمتها في تاريخها اللاحق. وكان زعيمهم، المعروف بالميكادو، مركز دينهم وعبادتهم. ثم زعموا أن الشمس تمت إليهم بصلة القربى، ومنها تجدر الميكادو فحسبوه ممثل الشمس وآلهة السماء على الأرض. وكانت عبادة أسلاف القبائل الذائعة في اليابان قبل إخضاع أسرة "يماتو" لها، خير ممهد لهذه العقيدة الجديدة. ولعل

رجال "يماتو" كثيراً في تبسيطها وتقريبها إلى أذهان العامة بأن أدخلوا عليها آلهة صغرى هم زعماء القبائل التي دانت بالطاعة والولاء لحكم الأسرة الفاتحة. وكان لهذا الجمع بين الآراء السياسية والدينية أثره الكبير، فانتج في عصرنا هذا توقيراً يكاد يبلغ حد العبادة لشخص الإمبراطور. على أنه بعد الحرب العالمية الثانية تنازل الميكادو عن ألوهيته، وأمسى شخصاً عادياً.

وها هنا نرى الميزات الخاصة البارزة في الدين الياباني، فالشنتوية ليست ديناً محكم الأوضاع، ولا تقاس بالهندوسية في أسرارها، ولا بالكنفوشية في متانتها الأخلاقية. ولكنها منطوية على طراز معين من الوطنية الدينية المتطرفة. فالإمبراطور والدولة كانا في نظر الياباني قبل هزيمة اليابان، هما كل شيء والفرد لا شيء. وكانوا يستسيغون تضحية الذات في سبيل الإمبراطور، بل يرحبون بها كشرف عظيم. وقد كانت عبادة الإمبراطور من العناصر البارزة في دين اليابان، ولذا كانت عقبة في طريق انتشار المسيحية في تلك البلاد، لأن المسيحية تضع الله فوق الإمبراطور.

الأخلاق الشنتوية

أما من الوجهة الأخلاقية فالشنتوية ليست ديناً سامياً. فإنها لا تعير اهتماماً كثيراً للأخلاق والآداب لأنها لا تقيم للفرد وزناً. ونعم إن بها فكرة عن كرامة الفروسية (Bushido)، ولكن اقتصارها على

طبقة معينة يجعلها عديمة الجدوى كمبدأ أدبي أخلاقي لعامة الشعب. ولعل ذيوع الكنفوشية والبوذية في اليابان قد حجب ما في الشنتوية من قدر قليل من الآداب والأخلاق. على أننا نلحظ ناحية واحدة قد يكون فيها بعض الشيء من الصفة الأدبية ونعني بها النظافة –"فإن الدنس مصيبة، والرجل خطية، والطهارة الجسدية هي على الأقل قداسة. وكل شيء يدنس الجسد أو الثياب مستقبح ممجوج". قد لعبت النظافة الطقسية دوراً خطيراً في الطقوس الشنتوية فجُبل الشعب الياباني على عناية خاصة بالنظافة الشخصية، مما نحسبه قوة أدبية إلى حد ما.

علاقة الشنتوية بالبوذية

قبل ألف سنة اندمجت الشنتوية في البوذية. فإن كهنة البوذية قدموا إلى اليابان سنة ٥٥٢ب.م. من كوريا وتبعهم آخرون من بلاد الصين. وكان لهؤلاء أثر عميق في البلاط الملكي. ولكن ظل عامة الشعب قرنين ونصف على تشبثهم بالشنتوية القديمة. إلى أن برز راهب بوذي فابتكر نظاماً ابتلعت فيه الشنتوية، وفي هذا النظام أدمج كل آلهة الشنتوية حاسباً إياها مظاهر متجسدة لبوذا، واشترط أن يكون هذا شأن الأباطرة (الميكادو) في المستقبل، أي أن يُدمجوا ضمن هذه الآلهة الصغرى. ولئن كان بقي لدى عامة الشعب شيء كثير من

عبادة آلهة الطبيعة، فإن هذا النظام قضى أن تدمج الشنتوية في البوذية.

وعقب هذا التبدل نهضة استيقظ فيها الشعور القومي وبلغ أوجه قوته في ثورة سنة ١٨٦٨، فأظهر الشعب صداً عن كل أجنبي غريب وزحزح البوذية الدخيلة عن منزلتها العليا، التي تسنمتها. فأزيلت التماثيل البوذية من الهياكل وأوقف الكهنة البوذية عن ممارسة وظائفهم، وعادت الشنتوية ديناً قومياً في المرتبة الأولى. وطبيعي أن يعقب هذا شيء من رد الفعل، فرفعت البوذية رأسها ثانية، وخفض جناح الشنتوية، ولكن آثار تلك النهضة لم تضعف وبقيت عاملاً قوياً خطراً في تكييف حياة الشعب.

وجهة النظر الرسمية للشنتوية

وتميل النزعة الحديثة في دوائر اليابان الرسمية إلى اعتبار الشنتوية مجرد نظام قومي تتجسم فيه المشاعر القومية، لا ديناً بالمعنى الصحيح. وفي هذا يقول أحد نبلاء اليابان: "إن الشنتوية نظام محكم نرفع بموجبه قبعاتنا تكريماً لأسلافنا وأبطال وطننا"، وهذا هو الاتجاه الذي تسير نحوه الشنتوية. ومما هو جدير بالذكر أن كهنتها لا ينذرون العزوبة، ويقومون علاوة على أعمالهم ومهمتهم العادية بوظائفهم الكهنوتية، وذلك لأن واجباتهم الدينية ضئيلة. ويعتقد كثيرون من اليابانيين أن

ليس في الشنتوية ما يناقض المسيحية، وما هي إلا نزعة قومية بحتة. ولكن قل بين مسيحي اليابان من يسلم بوجهة النظر هذه.

الشنتوية الرسمية اليابانية

في سنة ١٨٨٢ انقسمت كل المؤسسات الشنتوية بحكم القانون إلى قسمين كبيرين: هما "الشنتوية الطائفية، والشنتوية الرسمية". وحسبت الحكومة الطائفة الأولى "الدين الحق"، أما الطائفة الثانية فخرجت من نطاق هذا التقسيم. ولقد قال أحد الثقات اليابانيين:

"أما هذه الشنتوية الرسمية فيمكن أن تؤخذ كمظهر من المظاهر القومية وتعاليم الأخلاق والآداب اليابانية. إلى هذا الحد يصح اعتبارها غير دينية. ولكن إذا تعمقنا في البحث لا نلبث أن نجد أن الشنتوية الرسمية ليست إلا ديناً نُسج نسجاً في نظم اليابان القومية".

وتتولى الحكومة الإنفاق على الهياكل الرسمية التي تقام فيها حفلات الشنتوية الرسمية. ولا يجوز للشنتوية الطائفية أن تستعمل هذه الهياكل للعبادة فيها. وفي أعياد ومواسم هذه الهياكل الرسمية، يتحتم على كل معلمي المدارس المحلية أخذ الطلبة إلى تلك الهياكل لمشاهدة الاحتفال.

ولباب هذه الشنتوية الرسمية هو عبادة الأسلاف. وكان غرض الحكومة في تعضيد الشنتوية الرسمية ورعايتها إنما هو الاحتفاظ بعبادة

الإمبراطور وخلود مركزه وعصمته وتساميه فوق الجميع. وتقول إحدى النشرات التي صدرت عن وزارة المعارف في مارس سنة **١٩٣٧**: "إن أرضنا بلد إلهية، يحكمها الإمبراطور وهو إله". ولكن هذا كله قد تبدل الآن، وأخذت تغمر اليابان نزعة ديمقراطية غربية، واشرأبت أعناق الشعب إلى المسيحية.

البوذية اليابانية

قلنا عن البوذية الشيء الكثير عند الأفاضة في أديان الهند والصين، وهي ناشطة في بلاد اليابان تتمثل في طوائف وشيع كثيرة، بعضها يمتاز بالتسامح، وبعضها يتصف بالتعصب، وبعضها يمثل إلى الزهد والتصوف. وقد تطورت إحدى تلك الطوائف تطوراً يغاير البوذية الشمالية وهي طائفة الشنية التي تعد أكبر وأنشط الطوائف البوذية اليابانية. ويشاطر أتباعها البوذيين الشماليين وجهة نظهرهم من حيث اعتبارهم بوذا جوهراً إلهياً حالاً في الكون ومتمثلاً في أوضاع مجسمة شتى. وثقافتهم مأخوذة عن "أميدا بوذا". وهم يزعمون أن "أميدا" هذا ظهر على الأرض في العصور الخوالي في شكل راهب وأخضع نفسه لضروب من الإذلال والقهر حتى استطاع أخيراً أن يرقى إلى الحالة المجيدة التي نزل منها. وقبل عودته أثبت نذراً قال فيه أنه لو قدر له أن يبلغ درجة الكمال في البوذية فإنه لا يرضى خلاصاً قبل أن يتهيأ هذا الخلاص للجنس البشري المتألم. وتنفيذاً لهذا النذر

عانى كثيراً من الآلام والأوجاع ولكنه غلب في النهاية. وكانت ثمار جهوده افتتاح فردوس في الأرض الطاهرة يجوز إليه كل من يدعون باسمه"[٢].

وكان مبدع هذا التعليم راهباً اسمه "شنران" نقل أغلب أحكامه وأوضاعه عن طائفة Jodo Sect وأضاف إليها عناصر أشبه بتلك التي أدخلها لوثيروس في عصر الإصلاح المسيحي. فقال ذلك الراهب: إن "الأعمال" أي التقشف والصوم والطقوس وما شاكلها، ليست بذي قيمة في الخلاص الذي يقوم في أصوله على الإيمان في نذر "اميدا". ولكي يدفع عنه تهمة القول إن تعليمه يبعث على الخطية، أبدى أن الامتنان المتغلغل في نفس الإنسان الذي يشعر بخلاصه يسوقه إلى الإكثار من "الأعمال" أي أعمال الصلاح، مدفوعاً إلى ذلك بروح الشكر أكثر منه بالرغبة في كسب الخلاص.

وليس "اميدا بوذا" لليابان فقط. فهو مظهر بارز في قوانين ومناسك البوذية الشمالية، بل يقول البوذيون اليابانيون إن "غوتاما بوذا" أشار في أواخر حياته إلى "اميدا" هذا. وهي قصة لا ترتكن إلى سند، بدليل الفارق العظيم بين تعاليم هذا وذاك. وتعاليم "اميدا" مقصورة على الطائفتين اليابانيتين، وخاصة الطائفة الشنية التي لا تقدم أية عبادة إلى "غوتاما بوذا" وتخالف البوذية العادية في أن كنتها لا

---

(٢) عن A. Lioyd "The Creed of Half Japan"

ينذرون العزوبة، وفي عدم مراعاتها شيء من قواعد التقشف والزهد في البوذية العادية.

بوذية اميدا والمسيحية

يبدو لكل مطلع، شيء من التشابه بين تعاليم "اميدا"، وبين بعض التعاليم المسيحية، وخصوصاً تعاليم الرسول بوليس عن التبرير بالإيمان. والدليل متوافر على أن الراهب "شنران" عرف شيئاً عن المسيحية، وكذلك عرف أسلافه من زعماء البوذية شيئاً عنها من جراء اختلاطهم بالمرسلين النسطوريين. على أن هذا لا يحملنا على الإقلال من شأن تعاليم كهذه، تزدهر في قلب البوذية ويعتنقها البوذيون في حماس شديد. وقد قلنا أن الطائفة الشنية أنشط وأكبر الطوائف الدينية البوذية في اليابان. ولعل في هذا دليلاً على أن الطبيعة البشرية تستأثرها فكرة الخلاص التي لا تقوم فقط على الاستحقاق "والأعمال". ومن يدري ربما تستيقظ اليابان وتقبل مغتبطة قصة الخلاص، لا بوساطة كائن غامض تشير إليه الأساطير، بل بوساطة مخلص حقيق أيد مجيئه التاريخ.

ورغم التشابه بين بوذية اميدا وبين المسيحية، فإنا لا نتعامى عن الفوارق العظيمة بينهما. فالخلاص في نظر البوذي ليس خلاصاً من الخطية، بل من قيود الرغبات ومن الآلام ومن الآثار التي تترتب على تناسخ الأرواح وانتقال الروح من وجود إلى آخر. وفكرة عن الخلاص

كهذه ناقصة من الناحية الأدبية. ثم أن عقيدة البوذي في الحياة المستقبلة يحوطها الشك والارتياب، فالفردوس عنده مجرد رجاء. وهو مكان تتوقف فيها النفس ردحاً من الزمن في طريقها إلى الطور الأخير الذي يصعب التمييز بينه وبين الفناء.

الحالة الدينية العامة في اليابان

وفيما عدا تينك الطائفتين – Jodo and Shin – اللتين تدينان بهذه التعاليم في أوضاع مختلفة، فإن البوذية ليست ناشطة في اليابان.

أما طوائف اميدا فناشطة جداً. وقد اقتبست إلى حد ما الأساليب المسيحية كإنشاء جمعية الشبان البوذية وغيرها من المؤسسات، وتقوم الهياكل بجهود وخدمات على نمط الخدمات التي تجريها الكنائس. وتغمر الطائفة الشنية نهضة تتبع أساليب النهضات الغربية. بل أن لها مراسلين في كوريا ومنشوريا، ويتحدثون عن إيفاد بعثة دينية إلى أمريكا. ومن هذا يتبين أن حياة البوذية اليابانية قائمة على ثقافة اميدا، وحيث تختلف تلك الثقافة تبدو البوذية هيكلاً عاطلاً عن الحياة.

ويجعل بنا أن نذكر هنا أن البوذية والشنتوية يتبادلان التسامح الكريم، فينتقل الناس من هيكل بوذي إلى معبد شنتوي في غير حرج. ولا بأس في الحفلات القومية أن تجرى طقوس شنتوية، أو أن يراعى في

الجنائز الرسوم البوذية. وأما العقائد الأدبية التي يعتنقها الفرد العادي المحترم فهي مزيج من "نظافة" الشنتوية، والأخلاق الكنفوشية البوذية، وربما بعض التعاليم المسيحية. وهذا التسامح هو في الحقيقة ظاهرة من ظواهر اللاأدرية وعدم الاكتراث بالدين، وهي ظاهرة يراها الأجانب والوطنيون أنفسهم تتفشى بسرعة في اليابان. وقد أنتج تدفق الثقافة الحديثة مزيجاً مضطرباً من الآراء في عقول الناس وخصوصاً الناشئين، يصحبه الشيء الكثير من التشكك وانحلال المبادئ الأدبية. والظاهر تماماً أن الشنتوية والبوذية لا تسدان حاجات البلاد الأدبية. ولقد بلغ الخوف بحكام اليابان وقادة الرأي فيها مبلغاً حملهم على عقد مؤتمر للأديان الثلاثة الرسمية –المسيحية والبوذية الشنتوية– منذ سنوات، وكان الغرض منه النظر في ترقية الأحوال الاجتماعية والأدبية في بلاد اليابان. وقد كان المؤتمر –بغض النظر عما آل إليه أمره– اعترافاً بعجز البلاد على مجابهة مشاكلها الأدبية، ودليلاً على المكانة التي بلغتها المسيحية.

التمسك بالله

هل للمسيحية رسالة إلى تلك البلاد؟ من الناحية الأدبية تمس المسيحية بلاد اليابان في حالتي ضعفها وقوتها. فالصدق والطهارة الجنسية من المميزات البارزة في الحياة المسيحية. ويلجأ كثيرون من غير المسيحيين إلى الاستعانة بالمبادئ المسيحية من هذه الناحية. ثم أن

الفكرة اليابانية عن التضحية وإنكار الذات تتعمق وتزداد خصوبة في الصليب. وهناك دلائل تشهد لقوة الصليب في العقل الياباني إذ يُنظر إليه كنموذج من فعال البطولة وإنكار الذات. أما الميول السلبية في البوذية –أي التقشف وإذلال النفس وقمع الجسد– فهذه غريبة عن المزاج الياباني. وليس من شك في أن إهداء المبادئ المسيحية الأدبية في أكمل أوضاعها سيكون له أبلغ النتائج في تلك البلاد.

ولدى المسيحية كل شيء تفتقر إليه اليابان من الوجهة الدينية. لأن الأديان اليابانية قد فشلت في إعلان الله للشعب الياباني. فالشنتوية وما تتضمنه من عبادة الطبيعة والوطنية الدينية لم تفعل شيئاً في الكشف عن الله الحقيقي، ويعرف البوذي العادي من الخرافات والفردوس المادي أكثر مما يعرف عن الله. وفي اليابان مثل سائر يقول "بوصة واحدة فقط وإذا بنا في ظلمة حالكة"، إشارة إلى ظلام الغسق الذي يتحرك في نطاقه الدين الياباني. ولم تختبر اليابان قط تلك الطمأنينة الواثقة بالله التي تمكن الإنسان من السير في مخاطر الحياة غير هياب ولا جل، ولم تعرف قط ذلك اليقين الهادئ المكين في محبة أب غير منظور وقوته.

قلنا أن الصليب يبدو للعقل الياباني كنموذج سام لتضحية الذات نيابة عن الغير. ولكن "الكفارة" و"الفداء" وحتى "الخطية" – مصطلحات غريبة عن الفكر الياباني. والصليب كدينونة على الخطية،

ورسالة للغفران، لا يثير في العقل الياباني إلا قليلاً من اليقظة والاستعداد لتلبية ندائه.ولكن في هذا عينه الهبة الكبرى للياباني في نهاية الأمر. فحتى إذا افترضنا أن ثقافة "اميدا" تهيئ للناس خلاصاً من الخطية، لا من الآلام، فإنها تبقى جد مفتقرة إلى القوة لبث الشعور الحقيقي بالمسئولية الأدبية. ذلك لأن ليس لديها شيء يتسق مع الصليب أو يماثله. فهي تعلن مغفرة لا تكلف إلا قليلاً، وتميل نوعاً ما إلى محبة الله ولكنها تفشل في إظهار قداسته. وحاجة اليابان الأدبية كما يعترف بها ساستها لا تُسد إلا بإنجيل الغفران الذي يفتح عيون النفس لتدرك شناعة الخطية ومحبة الله الغافرة.

النزاع بين الدين والوطنية

وقبل هزيمة اليابان في الحرب الأخيرة كانت أعظم عقبة في سبيل انتشار الروح الدينية الحقة هي روح القومية الشديدة والوطنية المضطرمة التي تملك على الشعب كل عواطفه. فالتوقير الديني للميكادو كان عنصراً فعالاً، بل كان أفعل العناصر وأقواها في الحياة اليابانية. وكانوا يقيمون ضد المسيحية تهمة صارخة بأن مطالب المسيح تتعارض مع مطالب الميكادو. وقد تبدل هذا كله بعد أن صار الميكادو إنساناً عادياً. وحقاً إنه لمن أخطر الأمور على الأمة أن تخلع على نفسها ومصيرها القومي، في شخص حاكمها، ذلك التوقير الذي لا يليق إلا بالله دون سواه. واليوم تقدم المسيحية لليابان إقالة من

عثارها. فالمسيحية لا تنطوي على خيانة أو ولاء بارد للوطن كما كان يزعم الياباني، ولكنها توسع نطاق الوطنية. والمسيحي ينظر على مصير أمته وأمجادها كأنها مجتمعة ومتضمنة في فكرة أوسع هي ملكوت اتلله على الأرض، ذلك الملكوت الذي تفرغ فيه كل الشعوب مجدها وكرامتها. ههنا، وههنا فقط، الحق الذي يوسع آفاق الوطنية العمياء الضيقة، والمهمة الملقاة على عاتق المسيحيين الوطنيين في اليابان، أن يظهروا للملأ أن الوطنية لا تضيق بهذه الفكرة الواسعة، بل بالأولى تزداد نبلاً وكرامة ومجداً، وأن الإنسان يحب بلاده أصدق حب، ويخدمها أجل خدمة، متى طلب أولاً ملكوت الله.

الأديان السامية

والآن نجيء إلى الأديان الثلاثة الكبرى التي نشأت بين العنصر السامي– وهي اليهودية والمسيحية والإسلام:

ولما كانت هذه الأديان الثلاثة ما برحت حية متجاورة في الشرق الأدنى الذي اتخذته من قبل مهداً لها، فقد آثرنا أن ندع كل دين منها يتحدث عن نفسه. ولم نجد شيئاً من العناء في الحصول على بيان رسمي لليهودية في دائرة المعارف العبرية بقلم عالم إنكليزي من اليهود المحافظين. على أنه ليس من الهين في هذا العصر العثور على بيان واحد يلخص الإسلام كله تلخيصاً وافياً، وذلك لتباين الآراء، لا في العقائد الأساسية، بل في تأويلها والاجتهاد فيها في هذا العالم العصري. وقد رأينا أن نقتبس رسالة عن "عقيدة أهل الإسلام"، كتبها العالم الكبير الشيخ محي الدين بن العربي يشرح فيها الشهادتين. وهو من فلاسفة الإسلام ومتصوفيه الذين عاشوا في القرن السابع الهجري.

وأخيراً بحث في المسيحية بقلم الأستاذ "وليم باتون" الذي نقلنا عن كتابه خلاصات الأديان الأسيوية التي تقدم البحث فيها.

اليهودية

(بقلم الدكتور هربرت لوي، من اليهود الإنكليز المحافظين، وأستاذ اللغة العبرية في كلية أكستر بأكسفورد)

اليهودية: وصفها

قد يصح أن نصف اليهودية بأنها أشد الديانات استمساكاً بفكرة التوحيد، ولكنها في الواقع أكثر من مجرد عقيدة عقلية جرداء، فهي الأثر الذي تطبعه هذه العقيدة، بكل نتائجها المنطقية، على الحياة؛ أي على الأفكار والسلوك. هي الدين الذي دعا إليه أولاً إبراهيم خليل الله، وتمثل في عهد الختان، وما يزال أنساله يمارسونه حتى اليوم. هي أقدم الديانات في الأرض، ولد في أحضانها ديانتان قويتان، سادتا أكثر أقطار الكرة الأرضية، وقد عملتا على إذاعة مبادئ اليهودية في أوضاع معدلة، ولكن جوهر تعاليمها يهودي، على الرغم مما بهما من إضافة أو حذف. من ثم لا نرى اليهودية تجحد تلك الديانتين، ولا تحسبهما باطلتين وثنيتين.

وليس من الهين أن نضع وصفاً دقيقاً رسمياً لليهودية، فإن هذا يثير أمامنا سؤالاً: ما الحد النهائي الأدنى لتطابق الوصف؟ على أنه قد يقال أن اليهودية تقوم على أساسين: هما وحدانية الله، واختيار

إسـرائيل. وتنبـذ اليهوديـة عبـادة الأوثان والشـرك بالله، وتـؤمن بإلـه البشرية قاطبة ولكنها ليست ديناً جامعاً. وتؤمن أن هـذا العالم صالح، وأن في وسـع الإنسـان بلـوغ الكمـال، وأن لـه أرادة حـرة مختـارة تجعلـه مسئولاً عـن أعمالـه. ثم هـي تـرفض كـل وسـيط بين الله والإنسـان، ولا تعترف بأية قوة في الكون تعمل الشر. فالإنسان في نظرها حر، ليس خاضعاً للشيطان. ثم أن خيرات الحيـاة المادية ليسـت في حـد ذاتها شريرة، فالثروة قد تكون بركة وقد تكون لعنة وقد خلق الإنسـان على صورة الله، لذلك تحسبه اليهودية مخلوقاً كريماً كسائر أعمال الله. ولهذا السبب عينه تحسب الناس كلهم أخوة. وكما اتحدوا في بداية الأمر، سيتشـابكون معـاً مـرة أخـرى في نهايـة الـدهر، ويقتربـون إلى ملكـوت السـماء بمعونـة إسـرائيل ووظيفـة اليهوديـة أن تنشـر السـلام والمـودة في العالم.

ولقد منحت اليهودية الجنس البشري -بما انطوت عليه من فكرة الملكوت الإلهي الممكن إقامته في هذه الأرض على دعائم الحق والبر- رجـاءً يرنـوا إليـه، وهيـأت للتـاريخ هـدفاً يحيـا بـه، ويجاهـد نحـوه مـدى الأجيال. وتشهد شعوب أخرى في تطورات العالم انحلالاً مستمراً، من عصـر ذهـبي تغمـره السـعادة والرخـاء، إلى عصـر حديـدي يشـقى فيـه العالم بالكد والعناء، إلى أن ينتهي الأمر بطامة كبرى تأتي فيها النيران والدمار على نهاية كل الأشياء، على الإنسان والآلهة معاً. أما اليهودية

فتومئ إلى حالة من الكمال الإنساني، وغبطة تتأتى عن كشف ما هو إلهي في الإنسان، وإعلان مجد الله كاملاً، كهدف نهائي يسعى إليه التاريخ.

وهنا الفارق البارز بين اليهودية والمسيحية. فمجال اليهودية ليس فيما وراء هذا العالم، أي عالم الروح، الذي لن يقدر الإنسان العائش هنا على الأرض أن يدركه. أما رجاء القيامة ورجاء الخلود، اللذان تعرفهما كل قبائل الشعوب وكافة العقائد، في وضع ما من أوضاعهما، وتحسبهما ضرورتين لازمتين، فالظاهر أنعهما قد انسابا إلى اليهودية من عقائد دخيلة، وربما أخذت رجاء القيامة عن الفرس أو بابل، ورجاء الخلود عن الإغريق. ولا سند لأيهما في اليهودية بالذات. أما غرضها الأوحد فهو أن تجعل هذا العالم الحاضر ملكوتاً إلهياً قائماً على الحق والبر. وفي هذا تتميز نزعتها العقلية والأخلاقية العملية(٣).

ويتحقق هذا الغرض بإصرارها على عقيدة التوحيد، وعلى ممارسة الوصايا، وتنقر اليهودية على وتر الأعمال أكثر من تنقيرها على وتر الإيمان، وأن تكن الأعمال لا قيمة لها بدون الإيمان.

---

(٣) وليست اليهودية عقيدة أو نظاماً من العقائد يتوقف على قبولها الفداء. أو الخلاص في المستقبل. ولكنها نظام للسلوك البشري وناموس البر الذي يتحتم على الإنسان إتباعه. (عن كوهار– في دائرة المعارف العبرية).

واليهودية ليست بحاجة إلى عقيدة إيمان. أجل أنه من المشكوك فيه جداً أن يُدعى الكافر الملحد الذي يحفظ التوراة ويرعى مبادئ البر اليهودية يهودياً. وما من شك أنه "يخلص" بالمعنى المسيحي، لأن اليهودية تعلم أن لكل بار، بغض النظر عن عقائده، نصيباً في العالم الآتي. ولكن لأن اليهودية تؤمن أن كل إنسان صالح "يخلص"، فإنها تحتم أن يكون اليهودي الصالح شيئاً آخر، أسمى أخلاقياً، من مجرد كونه إنساناً صالحاً.

وبينما تفتح اليهودية الباب للدخلاء، فمن طبيعتها أن تبقى دائماً دين الأقلية الضئيلة، وذلك بسبب ما تفرض من تضحية وإيثار. ووظيفة اليهودية أن تبقى وصية على المُثل العليا، طاهرة الذيل سليمة أما أعين العالم. ولزام على اليهود أن يحاموا عن مُثلهم العليا، ولو زهقت منهم الأرواح في هذا السبيل، ولو ضحوا، كما فعلوا في القديم، لا حياتهم فقط، بل رخاءهم المادي، وهي تضحية أقسى عليهم من سواها. وما أكثر الشهداء العتيدين الذين أزاغت أبصارهم الثروة المادية فلم يكترثوا بالمثل العليا التي كان لزاماً عليهم أن يبذلوا حياتهم في سبيل الاعتصام بها إبان الاضطهاد.

والعالم في مسيس الحاجة لأقلية من ذوي المثل العليا. ولئن تكن اليهودية لا تجحد الحق الذي تعلم به المسيحية والإسلام، إلا أنها تؤمن في الوقت عينه أن في كلتا الديانتين عناصر أخرى لا تنسجم انسجاماً

تاماً والمصدر البدائي الفطري الذي انبثق عنه هذا الحق. فاليهودية إذاً لا تناهض الأوضاع الدينية التي درج عليها الناس وألفوها وأحبوها، وليست علة وجودها أن تنافس الجهود التبشيرية الناشطة التي تقوم بها ابنتاها، الكنيسة والمسجد. وهي تحسب نفسها، لا الوضع الوحيد للحق، ولكنها أخلص أوضاعه كلها وأكثرها طهراً ونقاء. وبينا تنشط المسيحية، وينشط الإسلام، لبث تعاليمهما في العالم، فإن اليهودية تترقب حلول اليوم الذي تتمكن فيه من بذل نفوذها وإدخال تأثيرها على تينك الديانتين كما فعلت في الأصل، ومن هنا تبسط سلطانها على كل العالم.

أما كيف يحدث هذا، وفي أي وضع تكون العبادة الجامعة للإله الواحد، فهذا ما لم تتعرض لشرحه أو التعليق عليه. وهذا "الدين المحتقر" الذي يستمسك في الواقع بالبقية الباقية من البر، أو قل بجوهر البر، سيبقى مصوناً لا يتطرق إليه الفناء أو الفساد، بسياج الوصايا العشر. ولقد نشأ ونما، في حلقة متواصلة لم تنقطع، مبتدئاً بالاعتراف البسيط بالوحدانية. ثم تطور وغدا نظاماً للحياة كاملاً شاملاً. وقد بُدئ في كتابة القصة في عصر إبراهيم إلى يومنا هذا، والقلم لم يفرغ بعد من الكتابة والتدوين.

عقيدة أهل الإسلام

(للشيخ الأكبر مُحي الدين العربي[٤])

قال الشيخ الإمام العالم العامل محي الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي بن العربي: هذه رسالة تتضمن ما ينبغي أن يعتقد في العموم وهي عقيدة أهل الإسلام، مسلمة من غير نظر إلى دليل ولا إلى برهان. فيا أخوتي المؤمنين ختم الله لنا ولكم بالحسنى، لما سمعت قوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام حين قال لقومه المكذبين به وبرسالته: إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه. فأشهد عليه السلام قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والإقرار باحديته، لما علم عليه السلام أن يستوقف عباده بين يديه ويسألهم عما هو عالم به لإقامة الحجة لهم أو عليهم حتى يؤدي كل شاهد شهادته. وقد ورد أن المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس وكل من سمعه. ولهذا يُدبر الشيطان عند الآذان وله حصاص، وفي رواية وله ضراط. وذلك حتى لا يسمع نداء المؤذن بالشهادة، فيلزم أن يشهد له فتكون تلك الشهادة له من جملة من يسعى في سعادة المشهود له. وهو عدو محض ليس له إلينا خير البتة. وإذا كان العدو

(٤) نقلاً عن كتاب "الهدية السعدية"، وهو مجموعة ست رسائل لبعض علماء الإسلام طبعت بمطبعة النجاح، لصاحبها مُحَمَّد حسين الترزي.

لابد أن يشهد لك بما أشهدته على نفسك، فأحرى أن يشهد لك وليك وحبيبك من هو على دينك وملتك، وأحرى أن تشهده أنت على نفسك بالوحدانية والإيمان في دار الدنيا. فيا أخواني ويا أحبائي رضي الله عنكم، أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة، وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشؤه، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله وملائكته ومن حضر من المؤمنين ومن سمعه، أن يشهد قولاً وعقداً أن الله تعالى إله واحد لا ثاني له في ألوهيته، منزه عن الصاحبة والولد، لا شريك له، ملك لا وزير له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى في وجوده، والعالم كله موجود به، وهو أوجده وهو متصف بالوجود لنفسه، لا افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه، بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه، ليس بجوهر متحيز فيقدر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فيكون له الجهة والتلقاء، مقدس على الجهات والأقطار، مرئي بالقلوب والأبصار، إذا شاء استوى على عرشه كما قاله، وعلى المعنى الذي أراده، كما أن العرض وما سواه به استوى. وله الآخرة والأولى، ليس له مثل معقول ولا دلت عليه العقول. لا يحده زمان ولا يقله مكان، بل كان ولا مكان وهو على ما عليه كان. خلق المتمكن والمكان، وأنشأ الزمان وقال أنا الواحد الحي لا يؤده حفظ المخلوقات، ولا يرجع إليه صفة لم

يكن عليها من صنعه المصنوعات. تعالى أن يحله الحوادث، أو يحلها أو تكون بعده أو يكون قبلها، بل يقال كان ولا شيء معه. فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيوم الذي لا ينام، والقهار الذي لا يرام. ليس كمثله شيء. خلق العرش وجعله حد الاستواء، وأنشأ الكرسي وأوسعه للأرض والسموات. العلي اخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتباً بعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء. أبدع العالم كله على غير مثال، سبق وخلق الخلق، وأخلق الذي خلق. أنزل الأرواح في الأشباح أمناً، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلقاً. وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، فلا تتحرك ذرة إلا إليه، وعنه خلق الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، ولكن سبق بأن يخلق فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير. أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً. يعلم السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئاً وهو خلقه، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. علم الأشياء قبل وجودها. ثم أوجدها على حد ما علمها فلم يزل عالماً بالأشياء. لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء، وأحكمها وبه حكم عليها من شاء وحكمها. علم الكليات على الإطلاق، كما علم الجزئيات بالإجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق، فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى الله عما يشركون. فعال لما يريد فهو

المريد الكائنات في عالم الأرض والسموات. لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراده، كما أنه لم يرده حتى علمه، إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لم يعلم أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريده، كما يستحيل أن يوجد نسب هذه الحقائق في غير حي، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها. فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حُر، ولا برد ولا حر، ولا حيوة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا بر ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض، ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح، ولا ظلام ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا بياض ولا سواد، ولا رقاد ولا سهاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من هذه النسب المتضادات منها والمختلفات والمتماثلات إلا وهو مراد الله تعالى. وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده. وكيف يوجد المختار ما لا يريد. لا راد لأمره ولا معقب لحكمه. يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويضل من يشاء ويهدي من يشاء. وما شاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن. لو اجتمع الخلايق كلهم على يريدوا شيئاً لم يرد الله تعالى أن يريدوه ما أرادوه، أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله إيجاده وأرادوه عندما أراد منهم أن لا

يريدوه ما فعلوه، ولا استطاعوا على ذلك ولا أقدرهم عليه. فالكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، من مشيئة وحكمه وإرادته، ولم يزل سبحانه موصوفاً بهذه الإرادة أزلاً والعالم معدوم غير موجود، وإن كان ثابتاً في العلم في عينه، ثم أوجد العالم من غير تفكر ولا تدبر عن جهل أو عدم علم، فيعطيه التفكر والتدبر علم ما جهل جل وعلا عن ذلك، بل أوجده عن العلم وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان أكون وألوان. فلا مريد في الوجود وعلى الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: وما تشاءون إلا أن يشاء الله، وإنه سبحانه كما علم فاحكم وأراد فخصص وقدر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن أو نطق في الورى، من العالم الأسفل والأعلى. ولا يحجب سمعه البعد فهو القريب، ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد. يسمع كلام النفس في النفس وصوت المماسة الخفية عند اللمس. ويرى السواد في الظلماء والماء في الماء، ولا يحجبه الامتزاج والظلمات ولا النور وهو السميع البصير. تكلم سبحانه، لا من صمت متقدم ولا سكون متوهم، بكلام قديم أزلي كسائر صفاته من علمه وإرادته. وكلم به موسى عليه السلام سماه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل، من غير حروف ولا أصوات ولا نغم ولا نغمات. بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات. فكلامه سبحانه من غير لهات ولا لسان، كما أن سمعه من غير واضمخة ولا

آذان، كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان، كما أن إرادته من غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان. فسبحانه سبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عميم الإحسان جسيم الامتنان. كل ما سواه فهو من جوده فائض فضله وعدله الباسط له القابض، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه. لا شريك له في ملكه. إن أنعم فنعم فذلك فضله، وإن أبلى فعذب فذلك عدله. لم يتصرف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف. ولا يتوجه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف. كل ما سواه تحت قهره سلطان ومتصرف عز إرادته وأمره. فهو الملهم نفوس المكلفين التقوى والفجور، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء والآخذ بها من شاء هنا وفي يوم النشور. لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله. أخرج العالم قبضتين وأوجد لهم منزلتين، فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي. ولم يعترض عليه معترض هناك، فقال إذ لا موجود ثم سواه هياكل تحت تصريف أسمائه ألاءه، ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان، أو شقياً لما كان من ذلك في شأن. لكنه لم يرد فكان كما أراد، فمنهم الشقي والسعيد هنا وفي المعاد. فلا سبيل لتبديل ما حكم عليه القديم. وقال تعالى هي خمس وهي خمسون ما يبدل القول لدىَّ وما أنا بظلام للعبيد لتصرفي في ملكي وإنفاذي مشيئتي في ملكي.

وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر، ولم تعثر عليها الأفكار والضماير، إلا بوهب إلهي لمن اعتنى به من عباده وسبق له ذلك برحمة أشهاده. فعلم حين أعلم أن الألوهة أعطت هذا التقسيم وأنه من دقائق القديم، فسبحان من لا فاعل سواه ولا موجود لنفسه إلا أياه. والله خلقكم وما تعلمون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ولله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين.

الشهادة الثانية:

وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتباه من وجوده ذلك سيدنا مُحَمَّد ﷺ الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً فبلغ ﷺ ما أنزل من ربه إليه وأدى أمانته ونصح أمته ووقف في حجة وداعه عل كل من حضر من أتباعه فخطب وذكر وخوف وحذر وبشر وأنذر ووعد وأوعد وأمطر وأرعد. وما خص بذلك التذكير أحداً من أحد عن إذن الواحد الضمد. ثم قال أهل بلغت. فقالوا بلغت يا رسول الله. فقال ﷺ اللهم أشهد وإني مؤمن بكل ما جاء به ﷺ مما علمت ومما أعلم. فمما جاء به وقرر أن الموت حق عن أجل مسمى عند الله إذا جاء لا يؤخر فأنا مؤمن بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك، كما آمنت وأقررت أن القبر حق. وعذاب القبر حق. وبعث الأجساد من القبور حق. والعرض على الله حق. والحوض حق. والميزان حق.

وتطاير الصحف حق. والصراط حق. والجنة حق. والنار حق. وفريق في الجنة، وفريق في السعير حق. وكرب ذلك اليوم حق على طائفة. وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر. وشفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين وإخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار من شاء حق. والتأييد للمؤمنين والموحدين في النعيم المقيم في الجنان حق. والتأييد لأهل النار في النار حق. وكل ما جاءت به الكتب والرسل. من عند الله علم أو جهل حق. فهذه شهادتي على نفسه أمانة عند كل من وصلت إليه أن يؤديها إذا سئلها حيث كان نفعنا الله وإياكم بهذا الإيمان وثبتنا عند الانتقال من هذه الدار إلى دار الحيوان، وأحلنا منها دار الكرامة والرضوان، وحال بيننا وبين دار سرابيلها القطران، وجعلنا من الذين أخذوا الكتب بالإيمان، وممن أنقلب من الحوض وهو ريان، وثقل له الميزان وثبت له على الصراط القدمان، إنه المنعم المحسان. لقد جاءت رسل ربنا بالحق فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام أهل التقليد وأهل النظر ملخصة مختصرة، والحمد لله وحده (تمت).

المسيحية

(رسالة جامعة إلى العالم)

لا يسع كل متتبع لهذه البحوث الموجزة التي أسلفنا عن أديان العالم الكبرى، إلا أن يتأثر في قرارة نفسه بما يلمس من شجن الإنسان في تلمسه الطريق نحو الله –وسواء أفكر الباحث في النفوس الكبيرة التي اضطرمت بضرام إلهي براق أم في الجماهير الغفيرة التي أشرأبت أعناقها إلى السموات وآمنت بإله من نوع ما، لا يسعه إلا الإحساس بأن طبيعة الإنسان تصبو إلى الله، ولن يهدأ لها بال حتى ترتوي هذه الطبيعة الصادية. "أنت قد جعلتنا لك، ولن تهدأ قلوبنا حتى تجد فيك مستقراً". وقد يكون حقاً أن جموعاً من الخلق لا تفكر في الله مطلقاً – ولو أن في الأمر شكاً، إذ ربما يكون الله موضع عبادة هذه الجموع تحت ستار مَثل أعلى أو نزعة غالبة، دون أن يخطر على أحد أن يدعو مَثله الأعلى أو نزعته الغالبة– الله. فضلاً عن ذلك فإنه من خطل الرأي أن نزعم أن كلّ من يدين بالهندوسية أو الإسلام أو البوذية طالب غيور يطلب الله ويسعى إليه، وكل مبتغاه أن يعلن له الوحي الصادق الذي لامين فيه. كما أنه من خطل الرأي أيضاً أن نزعم أن كل مَن يدعو نفسه مسيحياً يُحسب تابعاً متواضعاً صادقاً من أتباع

يسوع المسيح. وكان مجال البحث في هذا الكتاب محدوداً، فلم نستطع إلا إثبات خلاصات للأديان المختلفة، دون أن نسهب في وصف تفصيلي لمظاهرها العملية. فبين جماهير الكافة في كل نظام من هذه النظم الدينية، لا نرى إلاّ قليلاً مما نقدر على إخراجه من دائرة الوثنية الوضعية، والآداب الرخيصة، والتخوف من الأرواح الشريرة. على أننا في حكمنا على الأديان لا نراعي أسوأ ما فيها، بل أفضل ما بها. ولسنا ننكر أن فيها من دلائل المُثل العليا ما تستطيع النفس أن تنهض به للوصول إلى الله.

فشل الأديان

وبعد هذا التصريح الصريح، لا مندوحة لنا عن التسليم بنواحي القصور فيها. فأي إله قدمت هذه الأديان للإنسان في آخر الأمر؟

لقد رأينا كيف تذبذبت الهندوسية بين فكرة عن عالم روحي تنقصه الشخصية، وفكرة عن إله ليس له إلا شخصية محدودة. وكيف جابه "غوتاما بوذا" أحزان الحياة وآلامها وحيداً مستوحشاً، وجاء إلى البشر بإنجيل قوامه قمع الرغبات –وهو عوض هزيل لا يغني عن الله بديلاً. ورأينا كيف عاشت بلاد الصين إحقاباً طوالاً في غمرة من الشك والغموض والإبهام حيال الله، وكيف بلغت اليابان فكرة عن المحبة الإلهية، لا بأس بها، ولكنها مؤسسة على أسطورة لا تقوى على البقاء أمام قوة العلم التي لا تلبث أن تكتسحها. إنها لصورة حافلة

بالأنوار المتكسرة، وليس فيها نور صاف يضع منه الإيمان الكامل. أجل إن الله لم يترك نفسه بلا شاهد، ولكنه لم يُعلن في هذه كلها كما هو في طبيعته الحقة.

من ثم لا نرى في هذه الأديان ديناً جامعاً شاملاً. وليس ثمة رسالة تستطيع أن تشق لها طريقاً بين الجنس البشري غير بشارة الله المفرحة:

التعليم المسيحي عن الله

لنعد الآن إلى بحث مطالب الدين المسيحي بأنه دين جامع للجنس البشري قاطبة. ونرى قبل كل شيء أنه يحدثنا عن الله. وإذا رمنا أن نفهم طبيعة الله في المسيحية، فهناك نراه: الله الذي عاش معه يسوع في صلة وثيقة لا تنفصم عراها، صلة الابن بالآب. وكل ثروات الولاء والتعبد التي خلفها كتاب العهد القديم –كلها اختزنت في فكرة يسوع، عوناً لنا على فهم حقيقة الله. فهو الإله الذي تفوق قداسته كل تصورات الإنسان. عيناه أطهرا من أن ترى الشر، هو خالق البشر والمسيطر على العالم. هو "الآب"، ويحمل هذا اللقب كل معاني العطف والمودة والحنان.

ومن المألوف أن يوصف الله، حسب الفكر المسيحي، بأوصاف ثلاثة هي: المحبة والقداسة والقوة. ولما كان أنبياء إسرائيل من دعاة التوحيد، وقد بلغوا هذا اليقين، لا من طريق الفلسفة العقلية والمحاجة المنطقية، بل من طريف تفهمهم قصد الله وإدراكه في أظلم صور الحياة

وأحلكها، فإنه يتعين علينا ألا نستخدم هذه المصطلحات المليئة بالمعاني: وهي محبة الله وقداسته وقوته، استخداماً هيناً سطحياً، خشية أن تفوتنا الحقيقة الهائلة التي تنطوي عليها. أما هذه الحقيقة فقد عرفناها من تعدد المحاولات البشرية في تفهم أسرار الكون، والوصول إلى حقيقة يطمئن إليها القلب والعقل.

أما عن لفظ "المحبة" فقد قيل من أشباهها كلمات كثيرة في الأديان الأخرى. ولكن هذه الكلمة تشمل عدة من المعاني. وقد يراها بعضهم منطوية على أداء معروف، أو مظهر من مظاهر الأنس والرقة وحسن الأخلاق، ولكن المحبة في الفكر المسيحي هي التي تتألم إلى أقصى حدود الألم. أما كون الإنسان يصبو إلى المعرفة بأن الله يحبه، فهذا أمر لا جدال فيه. على أن الأدلة المستنبطة من دراسات علم الدين المقارن، تثبت لنا أن الإنسان قد تعذر عليه بلوغ هذه العقيدة. ولقد لمحنا منها ومضات عابرة مضطربة، في الأساطير والخرافات القديمة. وقد كان الحال هكذا عند الإغريق والرمان في القديم. فقد لمح البشر ومضات خاطفة عن الله المحب في أساطير الإله إيزيس أو الأُم العظمى. وذهب أفلاطون إلى القول إن المحبة الإلهية هي أساس الخليقة. أما أرسطو (ومثله سبينوزا) فقد ذهب إلى الله لم يحب العالم، ولو أن العالم والإنسان قد أحباه، ولزام عليهما أن يحباه. أما فكرة "الله محبة" فقد جاءت إلى العالم الوثني بيسوع المسيح. ثم أن "المحبة"

و"القداسة" في التعليم المسيحي، متحدتان اتحاداً تاماً. فالقداسة في الأصل قبل المسيحية، قد اختص بها الله تعالى، ولكن حملت معها فكرة الرهبة والسرية التي لا تُدرك، أكثر من فكرة الطهارة وصفاء الذات. على أننا نرى في العهد القديم عاموس النبي[٥]. يذيع رسالته الرهيبة، فيقول إن الله يعاقب ذنوب شعبه إسرائيل، لأنه قد عرف إسرائيل من بين جميع قبائل الأرض. هنا نرى القداسة والمحبة تتحدان معاً اتحاداً مكيناً.

وفي العقيدة المسيحية عن الله، لابد أن نجمع بين القوة والقداسة والمحبة معاً. وأنه لمن الخطر أن نفصل بين هذه الصفات الثلاث. ويتفاقم الخطر إذا حاولنا أن نفصل القوة عن القداسة والمحبة. وتذهب الفكرة المسيحية في نسبة القدرة إلى الله، إلى أنه تعالى الخالق المطلق الذي لا تحده إلا قداسة ذاته ومحبته.

ولن يبلغ الإنسان هذا الإيمان من طريق المطارحات النظرية، بل بإلهام من الله وإعلان منه. ونقصد بذلك أن البشر قد عرفوا الله لأنه أعلن ذاته لهم. هذه هي شهادة الكتاب المقدس المنسجمة. ولا ندحة لنا هنا عن القول إن هذا الإعلان قد يكون فارغاً أجوف، وتحضرنا الآن تلك الإعلانات الوثنية التي زعمت أن الله ظهر في أشكال بشرية

---

(٥) عاموس ٣: ٢.

أو حيوانية. أما في الكتاب المقدس، فإن الله يكلم الإنسان فيما له مساس بحياته الأدبية والأخلاقية. والنبي، إن كان نبياً صادقاً، يأخذ بأيدي البشر ليتقدم بهم إلى حق الله، معلناً لهم، ما يقوله الله في ذلك الظرف المعين. فشعب إسرائيل يُساق إلى النفي في بابل، مؤمناً أنه قد ترك الله وراءه في فلسطين، ولكنه يجده في المنفى هناك معه. ويُساق هوشع النبي إلى إدراك أعمق الأفكار عن محبة الله من طريق اختباره القاسي مع زوجته التي خانت عهده. وجملة الأمر كله، أن روايات الكتاب المقدس تعدنا لنرى أنه لم يكن هيناً على الفلاسفة أن يستوثقوا من ذاتية القداسة والمحبة في الله. ولا عجب أن يكون الأمر كذلك.

وقد يُقال هناك أفي وجهة النظر المسيحية شيء ما يعدو حدود العهد القديم، أي دين اليهود؟ وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد، وجواب جد خطير، ألا وهو أننا في الواقع نشر العهد القديم في ضوء الجديد. والفكرة المسيحية عن الله لا تنفصل عن الموقف المسيحي حيال يسوع المسيح. وإن قلنا إن الله بار وأب محب، يطلب الخاطئ وينقذه، فكيف نعرف هذا؟ إنه ليس عقيدة، وحتى العهد القديم لا يعتصم بها واثقاً. فما جوابنا إذاً؟

الإعلان المعطى في يسوع المسيح

جوابنا الأول أن يسوع المسيح، الذي لا يجرؤ أحد اليوم على إنكار تاريخيته، قد آمن بهذا وعلم به وعاش بموجبه. ففي أمثاله البسيطة الرائعة –الخروف الضال والابن الضال وغيرهما كثير– نراه يضع في لغة عامة الشعب الحق المنطوي على أن الله أبٌ، طبيعته المحبة القدسية. على أن هذا ليس كل الإنجيل، فإن يسوع يعلن الآب، لا في كلمات ينطق بها فقط، بل في حياته وشخصه. وبينه وبين الله الآب وحدة وانسجام في الفكر والقلب والإرادة. وبينه وبين الآب علاقة سرية متينة الأواصر، لم يستطع تلاميذه أن يتقصوا مكنوناتها "أنا في الآب والآب فيَّ" – "من رآني فقد رأى الآب". فإن رمنا أن نعرف طبيعة الله، على قدر ما يستطيع الإنسان أن يعرف، فلا ندحة عن الرجوع إلى شخص يسوع.

فرسالة المسيحية عن الله ليست إذاً عقيدة في مصطلحات وضعية، بل هي شخص –هو يسوع المسيح. وهنا تبدو لنا أهمية الأساس التاريخي الذي يقوم عليه الدين المسيحي، من حيث أنه متأصل في يسوع. فهو ليس بدعة اختلقتها أوهام الناس وخيالاتهم، بل شخصاً ظهر على مسرح التاريخ. ولقد تعرضت البيانات التاريخية الموجزة عن حياته على الأرض إلى أشد صنوف النقد الصارم، بل لم تتعرض حياة أخرى إلى الفحص الدقيق وإلى مسبر الامتحان

والاختبار، قدر ما تعرضت حياته، ومع ذلك فقد خرجنا من هذا كله بيقين أشد وثقة أمتن بيسوع الناصري. وفي وسع المسيحيين أن يجابهوا العالم بإنجيل أساسه حقيقة شخصية لا يجد إليها الشك سبيلاً.

المسيحية والخطية البشرية

والآن نعود إلى موضوع آخر: ماذا عسى أن تقول المسيحية عن الخطية؟ كان على المسيحية منذ نشأتها الأولى أن تكافح وتناضل مع وجهات نظر الآخرين في معنى الخلاص. وأنه لشيق حقاً أن نلحظ أنها قد عُنيت عناية جدية من البدء بهذا الفارق الصارخ الذي ميزها عن العقائد الأخرى. فالمذاهب الدينية الإغريقية الغامضة قد اتجهت عنايتها إلى تقييد النفس البشرية في عالم من المادة والألم أكثر من عنايتها بحقيقة الخطية بالذات. ولم تكن الخطية في نظر كتاب الأسفار المقدسة المسيحية حماقة أو دمامة، ولن تكن داءً أو جهلاً، بل هي عصيان وإرادة شريرة جامحة، ليست موجهة إلى تقليد من التقاليد الاجتماعية المرعية، ولا إلى نظام أدبي عاطل عن العنصر الشخصي، بل إلى الله الحي ذاته. ولم تحتل التوبة مكانة رفيعة في الكتاب المقدس وحسب، بل قد حث الكتاب المقدس الإنسان على أن ينيب ويتوب، لا عن هذا العمل أو ذاك من الأعمال الخاطئة، بل من أجل نفسه. وعلمه أيضاً أن يحكم على نفسه ويدينها على أساس مقياس يسوع المسيح الأدبي.

وقل بين الناس من ينكر على المسيح سمو تعاليمه الأدبية والأخلاقية، مهما يكن موقفه حيال المسيح ذاته. وليس هيناً على الذين يقرأون كلماته الأخاذة الخارقة عن النقائص البشرية مثل الأفكار الشهوانية، والأعمال الجموحة، أو الطمع في المال، أن ينسوها أو يغضوا الطرف عنها. وهو يأمرنا أن نحب أعداءنا، وأن نلقي وراء ظهورنا كل أثر من آثار الآداب الضيقة، وأن نمارس بدلاً عنها المحبة الواسعة المجيدة، التي في نطاقها يهمي الآب السماوي غيثه على الأبرار والأشرار سواء. ونحن نعلم علم اليقين أنه حين نقترب إلى يسوع، لا نقدر أن نبلغ مستواه، وأننا واقعون تحت دينونته، لا بسبب الخطأ الذي نأتيه، ولكن بسبب الخير الذي نأباه. وحين نقع تحت مؤثرات طهر يسوع ومحبته، نتعلم شيئاً عن معنى الخطية.

وهل هذا كلُّ ما في الأمر؟ أليس لدى المسيحية مزيد مما تعطيه غير شريعة جديدة تفضل ناموس موسى، وهي بعد ليست إلا ناموساً؟ هنا يبدو إنجيل الخلاص في أنصع مظاهره وأبهاها. فالخطية، من وجهة النظر المسيحية عصيان ضد الله، وشرود عن الصلة به، ومعصية ضد قداسته تعالى. لكننا ندرك في سر الصليب أن الله لم يكتف بكراهة الخطية كراهية مقدسة، ودينونته إياها والحكم عليها. إنما يعلن لنا يسوع، وهو على الصليب، فكر الله في حمل الخطية على نفسه. ويبين لنا موت يسوع معنى خطية الإنسان في نظر الله، كما ذهب إليه قدماء

علماء اللاهوعت في قولهم: "شناعة الخطية الشنيعة!" –بل يبين أيضاً أن الله قد تنازل ليجدد الصلة التي قطعت خطيتنا أواصرها، ويتخطى الشقة التي أحدثها بيننا وبينه اعوجاجنا وزيغنا.

ومن المبادئ الأولية التي يجب مراعاتها في وجهة النظر المسيحية عن الخطية والغفران، ليس ما يفعله الإنسان، بل ما يفعله الله. وترى ما الذي فعل الله؟ أليس يُسأل هنا في هذا المقام هذا السؤال الفاحص الخطير؟

لقد رأينا مدى العصور كيف عالج الناس الموضوع. فهم إما قنعوا واكتفوا بمستوى من الآداب الوضعية المألوفة، وأما أحنوا الرءوس أمام إله مطلق القوة، قد خسفت القوة فيه كل صلاح، بحيث لم يعد من الميسور إحكام صلة أدبية بين الإنسان وبين الله، وما أنهم تعلقوا بأهداب رجاء خافت وأسطورة كريمة عن إله يبدأ هو نفسه من جانبه بالعمل على إنقاذ الإنسان. على أنه إذا اقتصر هذا الرجاء على رغبة الإنسان ليس إلا، فإنا لا نتقدم قيد أنملة إلى ما نضبو من يقين.

وفي قلب المسيحية، وفي لبابها، عاش يسوع الناصري، ومات، وقام ليكون مع تلاميذه وأنصاره. وفي قلبها ولبابها أنها عاش في مكان عرفه التاريخ، وفي حقبة عينها الزمن، ونسج الناس حوله أفكاراً. لا من خيالات قلوبهم، ولا في قضاء السموات الخاوية، بل من قوة تأثيره فيهم وفضله عليهم. ولقد وجد الناس في يسوع المسيح حضور الله

ذاته، الذي تنزل ليفتديهم. وبان ذلك الدليل الناصع في شعور السيد بأن بينه وبين الله علاقة وثيقة. ويسوع هو الذي عرف أن ابن الإنسان سيبذل حياته فدية عن كثيرين. والذين كتبوا عن مجيء يسوع المسيح إلى العالم ليخلص الخطاة، ويموت عن الفجار ليصالح العالم مع الله، كانوا قوماً ممن رأوا مرأى العين، أو على الأقل عرفوا الذين رأوا السيد في حياته وفي موته الشنيع، فتكلموا بما عرفوا هم أنفسهم.

وقد وقعت الواقعة فعلاً، وتم العمل. ولم تعد الحادثة قصة يرويها الناس "عن" الله، لأنه قد أجرى فعلاً ما أراد في (كلمته) ابنه. ومن كان واحداً مع الآب، قد حمل عبء خطايا العالم، وقَبِل أن تنفذ فيه مشيئة الإنسانية. فإن كنا نؤمن في المسيح أن الله يحب أولاده الخطاة ويردهم –وهم عاجزون عن ذلك– إلى الصلة التي قطعوا وشائجها بأعمالهم، فإنه لا يسعنا أن نقبل هذا الإيمان أمراً هيناً، أو نتغاضى عن الكلفة الباهظة التي تقاضاها. ولدى مقارنة هذا بكل أنواع الترضية والاستغفار البشرية، وبكل أسباب الشدة والآلام التي يحفل بها العالم، فإنا نرى هنا غفراناً قد أشتري، لا بتضحية الإنسان وآلامه، بل بآلام الله ذاته.

* * *

هذه هي الرسالة التي تاق إليها البشر كما يتبين من الجهود والمحاولات المضنية في أديان العالم القديمة. فالذين تقربوا إلى الله،

أحسوا إحساساً قهرياً بعدم جدارتهم واستحقاقهم، وعرفوا أن بينهم وبينه شقة واسعة لا تتخطاها الذبائح، ولا صرامة الزهد والتقشف وما ينطويان عليه من إضناء وتذلل. ولن يؤمنوا إلا متى رأوا الله يتخذ الخطوة من جانبه أولاً ويبدو أمامهم متأهباً لقبول الإنسان في صلة القربى التي انقطعت أواصرها. والغفران، الذي هو إعادة ود مقطوع واستعادة صلة مبتورة، ليس معناه محو الخطايا كما تمحى الكتابة من على الصبورة، بل هو كلفة باهظة كما نتمثلها في الصليب وليس هذا مجرد الصفح والتجاوز عن الخطية، فالله ليس "متراخياً متهاوناً"، ولكنه غافر غفور. هذا هو الحق الذي يخضد قوة الخطية ويذل شوكتها.

وما الذي تقول المسيحية عن الحياة والموت؟ قلنا أن إنجيل المسيحية ليس مجرد شريعة جديدة تُطاع بالروح القانوني. كما أن الحياة المسيحية في جوهرها هي صلة بالله فيها تستقر روح الله (وهي روح يسوع) في روح الإنسان. وبذلك يتسنى للإنسان أن يختبر حياة الله، فيقوى على غلبة التجربة وعلى فعل مشيئته تعالى. وليس في هذا كله شيء من الشعوذة أو السحر، فالعملية خاضعة لنواميسها البسيطة

"صار الجامعة. ذلك أنه إذا أراد الإنسان باتضاع أن يسكن الله في قلبه، ورضى أن يقبله، معترفاً بخطاياه وطالباً في إخلاص ملكوت الله قبل كل شيء، فإن الروح الإلهي ينساب إلى داخله، ويبدل تدريجاً حياته ويجدد شخصيته.

وفي هذه الصلة بين الله والإنسان، في يسوع المسيح، يتوافر لنا الرجاء المسيحي في الخلود. ولم يقل العهد الجديد إلا قليلاً لإشباع رغبة حب الاستطلاع والوقوف على وصف تفصيلي مسهب للعالم الآخر، ولكن الكتاب المسيحيين أفصحوا بجلاء عن نقطة واحدة: وهي أنه متى أُحكمت هذه الصلة الجوهرية بين نفس الإنسان وبين الله في المسيح، فلن يكون للموت سلطان على تلك النفس. لأن هذه الحياة الجديدة أقوى من القبر. ويغدو الموت طوراً من أطوار الرحلة، لا يعقبه أدوار متوالية من الوجود المتتابع كما يذهب إليه الهنود في عقيدة تناسخ الأرواح، وإنما يعقبه وجود سعيد تظهر فيه بأجلى معانيها الحياة المستترة في المسيح. وحين يؤمن المسيحيون بقيامة المسيح من الأموات، لا يقتصرون في هذا على المسيح وحده، بل يؤمنون أيضاً أن المؤمنين به سيقومون مثله. كيف لا وقد باكورة الراقدين".

المسيحية والتقدم

ومن النتائج التي تترتب على هذه العقيدة في الروح واهب الحياة، أن المسيحية هي بالضرورة، كما أسلفنا، دين التقدم والرقي. وربما يبدي المسيحيون في بعض الأحيان شيئاً من الضعف والهزال في هذا المضمار، ولكن الأمر الذي لا ينكر أنه حيث يسود الروح المسيحي الحق، يصبح الصوت الداوي حاثاً الناس على التقدم والارتقاء. ومن

الطبيعي أن ينظر القوم الذين يؤمنون في الله كروح، بينه وبين البشر صلة، إلى الحياة كأداة لمظهر الله وإعلانه، وأن يتعلموا المزيد من إرادته وطرقه، كلما تقدمت الأجيال وتعاقبت العصور.

بساطة الرسالة المسيحية

وإن كانت هذه إذاً خلاصة الرسالة المسيحية، فإنا نلحظ فيها لأول وهلة بساطتها المتناهية. وحين نقول إن رسالة الإنجيل بسيطة، لا نقصد من وراء ذلك الحط من قدر الجهود العقلية. فإن هناك عالماً زاخراً يُكشف في هذه العبارات البسيطة، وحكمة الإنسانية لن تستوعب سراعاً معنى هذه الرسالة. ولكنها بسيطة بكل معنى الكلمة من حيث أنها تعني أصلاً بموقف النفس إزاء الله، وأنها تجول في نطاق الحقائق الجوهرية العظمى التي تربط الجنس البشري معاً، عالمهم وجاهلهم، كبيرهم وصغيرهم. وقد استنبط من المسيحية كمية هائلة من العقائد (ولا ضير في هذا)، ولكنها ما فتئت فصيحة البيان قوة النبرات، حين تواجه الحياة في أبسط أوضاعها وأصدقها، وحين يجابه الرجال والنساء مشاكل الزمن والأبدية.

المسيحية دين جامع

ونرى ثانياً أن الإنجيل في جوهره رسالة جامعة شاملة، فليس فيها ما يقتصر فقط على أمة واحدة، أو جنس واحد، أو طبقة واحدة من الناس. ولم يفقه التلاميذ الأولون في بادئ الأمر أن الحدود اليهودية

الضيقة قد زالت، ولكن عبقرية الرسول بولس قد فطنت إلى تضاعيف الرسالة من هذه الناحية، وعرف أنها لليهودي والأممي، والبر بري واليوناني، والذكر والأنثى، على السواء، دون تفريق أو تمييز. فهل نحن في شك من هذا؟ إن إعلان الله في المسيح قد خلا من كل نعرة عنصرية أو نزعة ضيقة –هو يسع البشرية قاطبة. وإنجيل الخلاص من الخطية لجميع الناس، كلهم فيه سواسية، وهو لا يقوم على ذبائح وتقدمات معينة، ولا يتطلب ميزات عنصرية خاصة. وليس أساسه استحقاق الإنسان وجدارته، بل عطف الله ومحبته. حقاً أن رسالة الحياة في روح الله وقوته، التي بها يغلب الإنسان التجربة ويفعل مشيئة الله، جامعة شاملة في دعوتها وفي آثارها. فلا حدود فيها ولا قيود، ولا شرق ولا غرب. ولا قداسة متفوقة للمستجدين البر، ولا إنكار لحق البسطاء والجهلاء في رؤيا السماء –ولكنها حياة بشرية كاملة، لأنها إلهية كاملة، فيها يشترك كل الناس على قدم المساواة.

وأنه من الخطأ أن نزعم أن المسيحية واحدة بين نظم عديدة متنافسة. ونحن إذا قارناها بالأديان الأخرى، فذلك لكي نرى بأوضح بيان حاجات النفس كما تمثلت في سعي البشرية الدءوب نحو الله، ولكي نرى كيف يشبع دين يسوع تلك الحاجات اللجوجة، ويستجيب إلى تلك الصرخات الصامتة. وإن كان ثمة شيء أحق أو جميل أو جليل أو صيته حسن، في أي من أديان العالم الأخرى،

فالمسيحية لا تنكره ولا تبطله. وليس شيء من الحق في أي دين آخر من أديان العالم لا نجده في المسيحية، بل إن الأشياء التي رآها البشر في مختلف العصور بصور باهتة داكنة، والتي تاقت إليها الإنسانية مدى الأجيال، نراها متعلمة في المسيحية، ناصعة البيان قوية الوضوح. فإن الدين ليس كفاح الإنسان في طلب الله وحسب، وليس هذا كل ما في الدين، إنما هو أيضاً إعلان الله ذاته للإنسان. ولقد تاقت البشرية، كما رأينا في هذه البحوث، أن تؤمن بإله قدوس محب. وحين يجيء يسوع الناصري في وسطنا، حينذاك تُستجاب "صلاة الجنس البشري". وحين نفوز بالجواب، نُعطاه على نمط يفهمه الطفل في سذاجته، والشيخ في رصانته. ويفهمه الفقير والجاهل جميعاً.

مطلب المسيحية

وإن صح هذا، وهو صحيح، وإن كان الإنجيل حقاً رسالة للبشرية قاطبة، كان على الذين يؤمنون به تبعة ثقيلة. فهو إما رسالة يبشر بها العالم كله وإلا فلا. وإن قلنا إن الإنجيل ليس للهندي أو الصيني أو الشرقي، فهو لن يكون للإنجليزي والأمريكي والغربي، وأحسب الضمير المسيحي يستيقظ تدريجاً إلى عرفان هذه الحقيقة، ونعني بها وحدة المهمة المسيحية في العالم أجمع. فإن الأسرة البشرية بأسرها مرتبطة بهذه الشركة الواحدة العظمى. وتزول الآن بفضل التجارة والتعليم والأسفار والمؤثرات الأخرى، تلك الحواجز المادية

الـتي قامـت مـن قبـل فواصـل بـين شـعوب الأرض. فهـل نتصـور أن المسيحية التي تغلق أحشاء رحمتها وهي ترى العالم مغموراً في الضنك والضنى، تستطيع أن تبرئ أدواء المجتمع في البلدان التي تدعو نفسها مسيحية؟ وفي صدد دين المسيح نحسب كل بخل أو شح في الروح أمراً خطيراً جسيما. فالكل للمسيحية وإلا فلا. والسبيل الأمين الوحيد أمام الكنيسة المسيحية أن تنهض لتقوم بالمهمة التي تبدو أمامها مستحيلة. أما إذا اقتصرنا على الجهاد في زاوية واحدة، شلت قوتنا، وجمدت أعصابنا. فلنواجه المهمة كلها في ثقة هادئة مطمئنة معتمدين على الله، عندئذ تعمل قوة الله ومحبته في عنفوان قوتها، ونكون لها شهوداً، ونكون لها حماة إلى أقاصي الأرض.

* * *

ولعل مسك الختام لهذه البحوث أن ننشر هنا الرسالة التاريخية الرائعة التي أذاعها المؤتمر المسيحي الدولي الثالث من مدارس في بلاد الهند على كل شعوب الأرض.

رسالة المؤتمر المسيحي الدولي الثالث
إلى كل شعوب الأرض

سلاماً إلى كل شعوب الأرض

وبعد، فنحن سبعون وأربع مائة مندوباً قد اجتمعنا من سبعين أمة ومن أجناس كثيرة في الأرض، لنبحث عن أمثل الوسائل التي نذيع بها في العالم رسالة محبة الله الأزلي المعلنة في يسوع المسيح.

ولقد تبينا من التقارير التي انتهت إلينا، من كل أنحاء الأرض، أن الأوبئة القديمة التي تفتك بالإنسانية قد نشطت في هذا العصر نشاطاً لم يسبق له مثيل. ففي كل بلد من بلدان العالم يجثم شبح الحرب أو الخوف من الحرب على قلوب الناس، ويسدل ظلاله الكثيفة على آمال البشرية وأمانيها، والكراهية بين الجماعات والشعوب، وما ينجم عنها من اضطهاد قبيح مذموم قد أمت إلهاً قومياً في كثير من الميادين، وتزداد سطوة هذا الإله حتى ليخشى أن يغدو معبوداً تعنو له الجباه، والجشع الكلب في المال يقيم فاصلاً بين الذين لهم والذين ليس لهم، ويحفز الأخيرين على الغضب والانتقاض والثورة، ويُفزع الأولين بداء العصبية التي يحس بها القوي حينما تستهدف قوته للخطر.

ومرة تلو أخرى أحسسنا بشعور الاستنابة والندم، بعد إذ أدركنا أن كل هذه المساوئ الآكلة من صنع يدي الإنسان. وهي تحمل معها طابع الصنعة البشرية، كما تحمله السيارة أو الطيارة. فلا الفيضانات الجارفة، ولا الزلازل المدمرة ولا قوى الظلمة الغامضة الخارجة عن إرادتنا، هي التي تشعل نيران الحروب أو تخلق التوتر الاقتصادي. وأنا لنعلم أننا عائشون في فوضى خلقناها بأيدينا.

ومرة تلو الأخرى، أدركنا على مضض أن المساوئ التي تصدمنا ليست من صنع ارdياء الناس وحسب، بل من صنع أخيارهم أيضاً. فإن أخطر نكباتنا وأشنع مصائبنا لم تحل بنا على أيدي أناس تعمدوا إيقاع الجنس البشري في الاضطراب والقلق، بل على أيدي قوم ظنوا أنهم فعلوا أفضل ما لديهم في الظروف المحيطة بهم. ولم يقم بعد الإنسان الذي كان له من الحكمة وأصالة الرأي قسط يمكنه من تخليص العالم من آلامه الحاضرة. ولم نعرف بعد الإنسان الذي له من هذه الحكمة وأصالة الرأي قسط يستطيع به أن ينقذنا الآن.

على أننا في هذه اللحظة نرانا مضطرين للاستناد إلى إيماننا لنخلص من التشاؤم إلى رجاء مجيد. ونعلم يقيناً أن هناك "واحداً" – على غير غرارنا– لا يُهزم ولن يعرف الهزيمة. ففي إعلان المسيح نرى الله، لا إلهاً بعيداً لا يبالي ولا يعبأ إلا بنفسه، بل أباً محباً للجنس البشري كأبناء له، حباً لا يُوصف ولا يُستقصى. ونحن الذين عرفنا

المسيح رسوله وابنه، مصدعاً بالألم على الصليب الذي ارتفع عليه بسب محبته للإنسان –قد فزنا برؤيا خارقة متلمعة، أزاحت لنا اللثام عن عمق عاطفة الله نحو خاصته. وبسبب هذه الرؤيا المجيدة استعذب المسيحيون ميتة الاستشهاد مدى عصور التاريخ، ونزحوا عن الأهل والوطن إلى أقاصي الأرض لحمل رسالة الإنجيل. وفي اتضاع كثير نسجل هنا شكرنا وامتناننا أن نرى –حتى في هذا العصر– دلائل متكاثرة على أن الرجال والنساء ما برحوا ينزحون إلى أوطان الاغتراب رسلاً أمناء مجاهدين لأجل المسيح.

ومما لا مراء فيه أن الله وحده هو الذي ينقذ الشعوب، وأن الله أبا ربنا يسوع المسيح هو الذي يقدر ويريد أن ينقذ. وأنه ليلوح لنا جلياً أن الوسائل التي يتطلبها الله ليست الرجال والنساء من أصحاب المثل العليا وحسب، بل هم الذين يجاهدون في غير انقطاع بالصلاة والعبادة لتحقيق هذه المثل العليا على نور إرادته الصالحة –ويثابرون في غير وناء على تمحيص هذه المثل وتوكيدها. والله لا يطلب في الأزمة الحاضرة إنسان الأخلاق المجرد. إنما يطلب الذي يوقظ جذوة النار في أخلاقياته وأدبياته، ويثابر على النماء المضطرد متجدداً كل يوم بلمسة الله المنعشة. وليس يستطيع أحد منا الوقوف بلا عيب أمام نعمته، على أن الرجاء الوحيد أمام العالم متعلق بالذين يجاهدون على الأقل أن يعرفوه وأن يتبعوا طريقه.

ما الآلهة القومية من أي نوع كانت، وآلهة التعصب للعنصر أو الطبقة فهذه أعجز من أن تخلصنا. ثم أن الاعتراف بالله في المسيح لا يسلب الإنسان الولاء لأمته أو أسرته أو ثقافته. وحينما تأخذ أية أمة المسيح أخذاً جدياً. وحينما نعتصم به أية ثقافة قديمة، فهو لا يفقدها ذرة من الخير فيها، بل على نقيض ذلك يرفعها إلى مصيرها الأعلى، ولكنه ينقذها من الضيق بنفسها، ويبسط أمامها مجالاً جديداً للنمو والارتقاء، ويهيئ لها إرادة صالحة أكثر اتساعاً من الولاء القومي أو الولاء الضيق لثقافة مسينة، إرادة تتسق ومحبة الله الواسعة.

ولقد رأينا في وسطنا أن الولاء لمبادئ المسيح يصنع العجائب بين الرجال والنساء. وإذا صلينا ذابت، فيما نحن نصلي، الحواجز التي تفصل قومية عن أخرى وطبقة عن أخرى. وإذ قد ارتبطنا في الروح القدس بعضها ببعض وكلنا بالله، فإننا قد عرفنا معنى الشركة والألفة. ونحس أن هذه الحالة التي عرفنا وعد لما يمكن أن يكون على كل الأرض.

ونوجه إلى كل الزملاء المسيحيين في العالم أجمع نداء لكي يشاركونا في تكريس جديد لله. ومما لا شك فيه أن الله يدعونا في هذه الأوقات لنخرج أنفسنا من نطاق الذاتية الضيق، وأن نقبل على مذابحه، وأن نتعلم منه وأن نعلن طرقه للناس في كل علاقات الحياة. ولكي نعلن الله للدولة، علينا أن نجاهد لتوطيد العدل بين جميع الناس.

أما في عالم التجارة، فعلينا أن نضع حداً لهذا التنافس القتال سعياً وراء المنافع المادية الشخصية، ونعمل لتعميم الخير العام الشامل للجميع. أن الحال يتطلب منا في كل مكان خدمة مضحية مشربة بروح الإيثار. والله نسأل أن يعين كنيسته لتحمل قصة محبته إلى البشرية قاطبة، حتى تشمل هذه المحبة الأرض كلها، وتربط الأمم والأجناس والطبقات بروابط العطف المتبادل، متمنطقة في هذا كله بإيمان في المسيح، لا غالب له ولا قاهر.

ملحق ١

(بيان عددي لأتباع أديان العالم الكُبرى)

(منقول عن "the world Almanac, U.S.A")

يهود	١٥.٦٣٠.٠٠٠
مسلمون	٢٠٩.٠٢٠.٠٠٠
مسيحيون	٦٨٢.٤٠٠.٠٠٠
بوذيون	١٥٠.١٨٠.٠٠٠
كنفوشيوس وتاوزميون	٣٥٠.٦٠٠.٠٠٠
هندوس	٢٣٠.١٥٠.٠٠٠
شنتويون	٢٥.٠٠٠.٠٠٠
عباد الأرواح إلخ	١٣٥.٠٠٠.٠٠٠
أديان مختلفة أخرى	٨٠.٨٧٠.٠٠٠

والمقصود "بعباد الأرواح" تلك الأديان الوثنية الساذجة والجماعات البشرية التي تعتقد في الحيوانات أو الجمادات أو الأرواح التي يدين بها الوثنيون في أفريقيا والقبائل المتأخرة في بلاد الهند وأمريكا الجنوبية وأستراليا.

أما "أتباع الأديان الأخرى" فهم الجماعات الصغرى المتفرقة مثل الدروز وأتباع زرادشت وغيرهم.

على أنه من الحق أن نقول إن هذا البيان تقريبي فقط، فكثيرون من الكنفوشيين والشنتويين مثلاً بوذيون أيضاً. وإذا أخذنا بهذا القياس يزداد عدد البوذيين عن الرقم المبين هنا. ثم أن كثيراً من هذه الأديان تنتشر في بلدان خلو من الإحصائيات الدقيقة. وحسبنا أن نجد في هذا البيان فكرة عامة عن القوة العددية لكل دين من أديان العالم الرئيسية، وإن كانت هذه القوة العددية لا تعنينا بقدر ما تعنينا القوة الروحية التي يعتز بها كل دين ويحسبها ثروته الباقية، ومصدر منعته، وأكبر عوامل انتشاره.

ملحق ٢

(بيان تاريخي)

(يُبين بوجه التقريب الحوادث التاريخية في هذا الكتاب)

قبل الميلاد

٢٠٠٠ -٦٢٧	تاريخ كتابة "شوكنغ" وهو مجمل التاريخ الصيني.
١٧٦٥ -٥٨٥	تاريخ كتابة "شيكنغ" وهو كتاب أودس الصيني.
١٠٠٠	التاريخ التقريبي لجمع أناشيد "فيدا" الهندية.
١٠٠٠	التاريخ التقريبي لعصر زرادشت الفارسي.
٨٠٠ -٥٠٠	تاريخ كتابة أسفار البراهمة الهنود.
٨٠٠	نبوات عاموس.
٧٥٠	نبوات هوشع.
٧٤٠	نبوات أشعياء.
٦٢٧	نبوات أرمياء.
٦٠٤	مولد لاوتز.
٥٥١	مولد كنفوشيوس.
٥٠٠	التاريخ التقريبي لمولد بوذا.
٤٢٧	مولد أفلاطون.
٣٨٤	مولد أرسطو.

بعد الميلاد

٣٠	تاريخ الصلب.
٦٠- ٦٥	كتابة بشارة مرقس.
٨٠- ٨٥	كتابة بشارتي متى ولوقا.
١٠٠- ١٢٥	كتابة بشارة يوحنا.
٢١٩	الفراغ من كتابة "المشنة اليهودية".
٥٧٠	مولد مُحَّد.
٦٢٢	الهجرة.
١١٨٢	مولد محي الدين بن العربي.
١٢٦٠	وفاة بن العربي.

الفهرس